

إطلالات فكرية

تأليف

الدكتور/ عبد الحميد صالح حمدان

الجزيرة
للنشر والتوزيع
٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف

المكتبة الأزهرية للتراث
القاهرة

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

حمد ابن ، عبد الحميد صالح
إطلالات فكرية / تأليف عبدالحميد صالح
حمدان – ط١ – القاهرة : المكتبة الأزهرية للتراث ، [٢٠٠٧]
١٠٥ ص ؛ .. سم
تدمك ٨ ١٦٣ ٣١٥ ٩٧٧
١- الثقافة العربية ٣٠١,٢٠٩٥٣
أ- العنوان

اسم الكتاب : إطلالات فكرية

اسم المؤلف : د. عبدالرحمن صالح حمدان

رقم الطبعة : الأولى

السنة : ٢٠٠٧

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٢٠٠٣١

الترقيم الدولي : I.S.B.N / 977 – 315 – 163 – 8

اسم الناشر : المكتبة الأزهرية للتراث

العنوان : ٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف

البلد : جمهورية مصر العربية

المحافظة : القاهرة

التليفون : ٢٥١٢٠٨٤٧

اسم المطبعة : دار السلام الحديثة

العنوان : ٢٤ ش عمر المختار – الحى السابع – م. نصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله خاتم المرسلين، وبعد:

فهذه مجموعة من الإطلالات الفكرية التى جادت بها القريحة على مر الأيام والسنين لكى أنشرها وتكون بين يدى القراء الكرام، لعلها تلقى الضوء على بعض الموضوعات التى تحتاج إلى مزيد من التوضيح والفهم.

وقد عولجت هذه الإطلالات بصورة منفصلة، وعلى مراحل زمنية متتالية وهى تدور حول بعض المسائل التى تتعلق بالأدب والثقافة والفن والتاريخ وغيرها من الأمور التى ما زالت تشغل أذهان الدارسين والمثقفين بعامة.

ونرجو من الله أن تنزل هذه الإطلالات من نفوس القراء منزل الرضا، وأن تنال ما تستحقه من الاهتمام والتقدير، وأسأله سبحانه وتعالى الإنصاف والتوفيق، وأن يلهمنا الخير والصواب، إنه على كل شيء قدير.

د. عبد الحميد صالح حمدان

إن سيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأطيب السلام من أهم ما اهتم بــه العلماء الأعلام وحفاظ ملة الإسلام، كيف لا وهو الموصل لعلم الحــلال والحــرام والحامل على التخلق بالأخلاق العظام؟! قال الزهرى ــ رحمــه الله ــ فــى علــم السيرة: هو خير الدنيا والآخرة، وقال صاحب الاكتفاء:" أنه لا أحسن بعد كتاب الله الذى هو أحسن القصص وأصدق القصص وأفضل الخصــص، وأجلــى الأشــياء للقصص من أخبار رسول الله ﷺ، التى بالوقوف عليها توجــد حــلاوة الإســلام ويعرف كيف تمهدت السبيل".

والواقع أن حياة الرسول كانت هى بداية الحياة الروحية فى الإسلام، فقد كان يأخذ نفسه بالزهد فى الدنيا والإعراض عن زخرفها وجاهها والإقبال على الله عز وجل والجهاد فى سبيله، وكان يقضى الأيام والليالى متحنثاً وحيدا معتزلا الناس فى غار حراء قبل أن يهبط عليه الوحى، متعبدا ومتأملا بعين قلبه كل ما امــتلأ بــه الكون من آيات صنع الله جل جلاله.

وكان فى كل ذلك يحيا حياة روحية خالصة حتى صفت نفسه ودق حسه، وإذا بأنوار الحق تشرق فى أعماق نفسه، حتى هبط عليه الملك جبريل عليــه الســلام بالرسالة التى كانت فاتحة عهد مشرق وبداية صفحة جديدة فى تاريخ العالم أجمع، وهى الرسالة التى كلف بها من رب العالمين، والتى بعث بها بالهدى ودين الحــق، منبئا بما تسكن إليه العقول الزكية ليزيح عنا علل معاشنا ومعادنا، وقد عانى فــى ذلك أشد المعاناة من الكفار والمشركين، وهاجر من موطنه مكة إلى المدينة بــأمر من الله لكى يواصل كفاحه فى سبيل نشر هذا الدين الحنيف إلى أن أكمله لنا قبل أن يقبضه الله عز وجل وهو مستند إلى صدر عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى الســنة الحادية عشرة للهجرة.

ويقوم الإسلام على التوحيد، وهو العلم بما تفرد به الله عــز وجــل مــن الصفات التى لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين، وتفسير ذلك ــ كما جاء علــى لسان القاضى عبد الجبار: "أن نعلم أن لهذا العالم صانعا صنعه، وأنه موجود فيما لم يزل وفيما لا يزال، باق لا يجوز عليه الفناء، والواحد منا موجود بعد العــدم يجوز عليه الفناء، وتعلم أنه قادر فيما لم يزل وفيما لا يــزال ولا يجــوز عليــه العجز، وتعلم أنه عالم فيما لم يزل وفيما لا يزال ولا يجوز عليه الجهل، وتعلم أنه عالم بالأشياء كلها ما كان ويكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وتعلم أنه حى فيما لم يزل وفيما لا يزال ولا يجوز عليه الآفات والآلام، وتعلــم أنــه راء للمرئيات، مدرك للمدركات ولا يحتاج إلى حاسة ولا إلى آلة، وتعلم أنه غنى فيما لم يزل وفيما لا يزال ولا يجوز عليه الحاجة، وتعلم أنه لا يشــبه الأجســام ولا يجوزعليه ما يجوز عليها من الصعود والهبوط والتنقــل والتغييــر والتركيــب وتصوير الجارحة والأعضاء، وتعلم أنه واحد فى القدم والأولية لا ثانى لــه وأن كل ما سواه محدث مفعول محتاج مدبر مملوك مربوب، فإذا علمت هذه الجملــة كنت عالما بالتوحيد".

ومن معجزات نبينا محمد ﷺ وزاده فضلا وشرفا، القرآن العظــيم المجيــد، الذى عجز الأولون والآخرون عن معارضته، ووقف العالمون دون مناقضته، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وصراطه المستقيم، وسبيله القويم، وهو البحر الذى لا تنقضى عجائبه، ولا يدرك الفهم منتهاه، وهو الفارق بين الحق والباطل والكذب والصدق، والمميز بين الطيب والخبث، فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ومن معجزاته ﷺ، وكراماته الظاهرة الباهرة، إخباره عما وقع بعــده مــن الفتوح على المسلمين فى زمن الخلفاء الراشدين، وعما ظهر من الفتن، فإذا ما تأمل المرء فيما ورد من حديث الملاحم وأمثالها، وعرض على نفسه ما جرى لهذه الأمة

من تصاريف الدهر، رأى صحة نبوته وبرهانها الساطع، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن ملاحم الروم فحصلت، وعن قتال الترك فقوتلت، وعن ظهور النار بالحجاز فظهرت.

وهو الذى أخبر بأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، وهو ما جاء كفلق الصبح المنير وتكرر فى الوقت الذى عينه وقدره.

مات الرسول ﷺ، فكان خاتم الأنبياء، ولم يبق بعد النبوة نبوة إلا المبشرات التى يراها المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾[1]. ولذلك أجمع العلماء على أن خير القرون هو القرن الأول للهجرة، وهو قرن نبينا محمد ﷺ.

---

(١) سورة يونس: الآية ٦٣.

وصية الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه

نشأ الصحابى الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه وتفقه فى مدرسة الرسول الكريم، فكان من أفقه الصحابة وأكثرهم علما بالحلال والحرام وحفظا للقرآن الكريم، ومن ثم نال شرف تلقيب الرسول له بإمام العلماء.

وكان مولد معاذ فى ربوع يثرب عام (١٨) قبل الهجرة، وأسلم وهو ابن ثمانى عشر سنة، وشهد بيعة العقبة، كما شهد بدرا والمشاهد كلها، وبعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قاضيا بعد غزوة تبوك، ومشى إلى جانبه عند سفره يوصيه، فقال: "**يا معاذ إنى أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورحمة اليتيم، وحفظ الجار، وكظم الغيظ، وخفض الجناح، وبذل السلام، ولين الكلام، ولزوم الإيمان، والتفقه فى القرآن، وحب الآخرة والجزع من الحساب، وقصر الأمل، وحسن العمل، وأنهاك أن تشتم مسلما، أو تكذب صادقا، أو تعصى إماما عادلا، يا معاذ: اذكر الله عند كل حجر وشجر، وأحدث مع كل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية، يا معاذ: أوصيك وصية الأخ الشفيق، يا معاذ: لا تشبع وجارك جائع، وإذا شبعت فاذكر الجائع، فليس من الحلال ما أكلت بعد الشبع، يا معاذ: اتق الله ولا تأكل إلا طيبا، فإن أول من يسأل عنه ابن آدم إذا مات أكل الحرام، يا معاذ: من حلل الحرام وحرم الحرام فقد نجا، ومن تطهر يوم الجمعة بالماء ــ ولو كان يشتريه بمائة دينار ــ جلس فى رياض الجنة، يا معاذ: اذكر الله فى كل مكان، فإن ذلك المكان يشهد لك يوم القيامة، يا معاذ: ارفق بالفقراء والمساكين من غير أن تترك الحق، ولا تتبع الباطل وتمسك بالحق، يا**

معاذ: عد المريض وكن لليتيم كالأب الرحيم، يا معاذ: يسر ولا تعسر، وبشـــر ولا تنفر".

ثم ألقى عليه الرسول ﷺ بنصائحه الغالية، فقال: "**إنك تأتى قوما أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فـــإن هـــم أطـــاعوا لـــذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة. فإن هم أطـــاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم فتـــرد فى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب".**

توفى معاذ بن جبل ﷺ بطاعون عمواس بعدما استعمله الخليفة عمـــر بـــن الخطاب ﷺ على الشام، وكانت وفاته سنة ثمانية عشر من الهجرة، وبذلك ختم لـــه بالشهادة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة على الصحيح، ودفن فى غور بيسان.

﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

قيل: التفت على الإنسان الدنيا والآخرة.

وقيل: آخر يوم فى الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقى الشدة بالشـــدة إلا من رحمه الله.

وقيل: الأمر العظيم بالأمر العظيم.

وقيل: بلاء ببلاء.

وقال الحسن البصرى: هما ساقاك إذا التفتا أى ماتت رجلاه لم تحملاه وقــد كان عليهما جوالا.

وقال: هو لفهما فى الكفن.

وفى قول آخر: أى اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جســده، والملائكــة يجهزون روحه.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ أى المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله عز وجل: ردوا عبدى إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى (كما ورد فى حديث البراء الطويل)

﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ أى والتفت إحدى ساقى المحتضر على الأخرى من شدة كرب الموت وسكراته، وقيل: هو ساقاه إذا التفتا فى الكفن، وقال ابن عباس: إن المراد اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا، مع شدة المــوت وكربــه،

فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم حيث يلتقى عليه شدة كرب الـــدنيا مع شدة كرب الآخرة، كما يقال: شمرت الحرب عن ساق، استعارة لشدتها.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ أى إلى الله جل وعلا مساق العبـــاد، يجتمع عنده الأبرار والفجار، ثم يساقون إلى الجنة أو النار، وقال فى "الخازن": أى مرجع العباد إلى الله تعالى يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم.

و﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ نحو قوله﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ وقوله: ﴿ سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾، أى: ملك يسوقه وآخر يشهد عليه أوليه. وقيل:

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾، قيل: عَنَى التفات الساقين عنـــد خـــروج الروح وقيل التفافهما عندما يلفان فى الكفن، وقيل: هو أن يموت فلا تحملانه بعد أن كانتا تنقلانه. وقيل: أراد التفاف البلية بالبلية. ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ من قولهم كشـــفت الحرب عن ساقها، وقال بعضهم فى قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ إنه إشارة إلـــى شدة وهو أن يموت الولد فى بطن الناقة فيدخل أحدهم يده فى رحمها فيأخذ بساقه فيخرجـــه ميتا. قال فهذا هو الكشف عن الساق، فجعل لكل أمر فظيع.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾[1].

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾[2].

---

(١) الزمر: آية ٧١.
(٢) الزمر: آية ٧٣.

﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[1].

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[2].

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[3].

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[4].

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[5].

---

(١) الأنفال: آية ٨.
(٢) ق آية: ٥٠.
(٣) القيامة آية: ٧٥.
(٤) القلم آية: ٦٨.
(٥) القيامة الآيتان: ٢٩، ٣٠.

من وحي القرآن الكريم

"يسألونك عن...؟" ترددت هذه العبارة فى القرآن الكريم مرات عديدة متى أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح للناس بعض أمورهم، وتلك صيغة قرآنية بليغة للإجابة عن أسئلة تدور فى الأذهان وتنتظر الإجابة، فهذه التساؤلات تعقبها دائما إجابات قاطعة من عند الله سبحانه وتعالى، ناهيك عن أنها تشكل مدونة السلوك لكل مسلم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

١ ــ الأهلة:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[١].

٢ ــ خير الإنفاق:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾[٢].

٣ ــ الشهر الحرام:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾[٣].

٤ ــ الخمر والميسر:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة آية: ١٨٩.
(٢) سورة البقرة آية: ٢١٥.
(٣) سورة البقرة آية: ٢١٧.
(٤) سورة البقرة آية: ٢١٩.

٥ ـ إنفاق العفو: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

٦ ـ اليتامى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

٧ ـ الحيض عند النساء:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[3].

٨ ـ الحلال وما أحل للناس: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ

---

(١) سورة البقرة آية: ٢١٩.
(٢) سورة البقرة آية: ٢٢٠.
(٣) سورة البقرة آية: ٢٢٢.

أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾[1].

٩ ــ أمر الساعة:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[2].

١٠ ــ الأنفال:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3].

١١ ــ الروح:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة آية: ٤.
(٢) سورة الأعراف آية: ١٨٧.
(٣) سورة الأنفال آية: ١.
(٤) سورة الإسراء آية: ٨٥.

١٢ ـــ ذو القرنين:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

١٣- الجبال:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[2].




(١) سورة الكهف آية: ٨٣.
(٢) سورة طه آية: ١٠٥.

كلمة عن تاريخ الإسلام

لم يحظ دين من الأديان السماوية بمثل ما حظى به الإسلام من قوة وعظمة، فمنذ أن بزغ عهد الإسلام وبدأ ينشر تعاليمه وأحكامه فى ربوع الجزيرة العربيــة والعراق والشام ومصر وإيران والمغرب وغيرها من دول آسيا وإفريقيا، وهو فى حركة دائبة ونشاط دائم لا يكل من أجل العقيدة الجديدة، ومن أجــل إقامــة دولــة إسلامية لأمة الإسلام.

ولقد مرت هذه الدولة بعدة أطوار وامتلأت بالأحداث والوقائع علــى مــدى قرون عديدة وشغلت أدوارها رقعة فسيحة من العالم، بحيث أصبح من غير المعقول ألا نطلق عليه اسم أهم دوافعه وأكبر محرك له وهو الإسلام فعرف تاريخــه، دون التواريخ الأخرى، بالتاريخ الإسلامى.

وللتاريخ الإسلامى الذى يبدأ مع بعثة النبى ويؤرخ بهجرته، (٢٣ سنة بعــد البعثة) مراحل خاصة به، وحقب زمنية تبدأ مع عصر النبوة وتتابعت بعــد ذلــك عصور الخلفاء الراشدين ثم الأمويين، ثم العباسيين إلى أن سقطت بغداد فى عــام ١٢٤٨م على يد المغول، وانقسم العالم الإسلامى إلى دول كثيرة تحكمها أسر مسلمة مستقلة.

والتاريخ الإسلامى كغيره من التواريخ الأخرى، يعتبر جزءً لا يتجــزأ مــن تاريخ الإنسانية، ولا نغالى إن قلنا إنه يمثل شريحة دسمة من شرائح هذا التــاريخ الكبير، وإن تميز عنه تميزا واضحا فى طرائقه وأساليبه وفى نتائج أحداثه وآثارها على العالم بأجمعه.

وهو لا يتوقف عند حد سرد الحوادث التاريخية التى ألمت به أو بإيراد ذكر الممالك والملوك والسلطنات والسلاطين، ولكنه يضم بين طياته أعظم تاريخ فكرى وسياسى واجتماعى واقتصادى.





صحيح البخارى ومنزلته

يضع المسلمون صحيح البخارى بعد كتاب الله العظيم القرآن الكـريم، فهـو المصدر الثانى للتشريع إذ عليه تقوم قواعد أحكام الشريعة الإسلامية وبـه تظهـر تفاصيل مجملات الآيات القرآنية، فهو وسائر كتب السنة المطهرة، المفسر للكتـاب بما نطق به رسولنا ﷺ عن ربه بوحى يوحى.

وصحيح البخارى يضم فى ثناياه فصولا من أصول الدين لا غنى لمـن أراد الاختصاص بعلوم الشريعة عن معرفتها، وهى ما فيها من الاعتبار بأخبـار بـدء الخلق والأنبياء، وما كان فى بنى إسرائيل من الأنبياء، وأيام الجاهلية وابتداء النبوة وما تلاها من السير والمعجزات، وجمل الاعتقادات ولوازم الطاعات، والنهى عن المنكرات، وذكر الغزوات، ونوازل الآيات وثوابها، وأبواب الفقه والتفسير والتعبير وبيانها، وفضائل الصحابة وخصائصها، ورغائب الزهد فى الدنيا والعمل للأخرى ومراتبها، وما فى ملكوت السماوات والأرض من قدرة الله تعالى وشواهدها، ومـا يتصل بذلك من المواعظ ورقائقها، وما يكون من الفتن والأشراط إلى يوم القيامـة وأنواعها، ثم ما يكون من البعث والنشور، وما بعد الحساب من الثواب والعقـاب، والاستقرار فى الجنة أو النار وصفاتهما، وخصوص أهليهما منهما، ومـا يتعلـق بذلك.

وقد فاق هذا الصحيح كل المصنفات التى كتبت قبلـه كمصـنف الـوادعى (١٨٤هـ)، وابن أبى شيبة (٢٣٥هـ).

ولا غرو فى ذلك، فجامعه الإمام البخارى هو من أجمعت الأمة على توثيقه وأمانته وتبحره فى علم الحديث، وهو الذى خص بالاجتهاد فى ذلك، وبذل الوسـع فيه، وارتحاله فى الأمصار والأقطار، وانتقائه حرفا حرفا، واختباره سندا سندا بما رُزِقه من نهاية الدراسة وإحكام المعرفة وجودة التمييز، قـال رحمـه الله تعـالى:

"خرّجت كتابى الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث، وما وضعت حديثا إلا صليت ركعتين".

وولد البخارى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، فى مدينة بخارى، وحج وهو ابن (١٦) سنة، ورحل مطوفا فى طلب الحديث، وورد مصر وبغداد والبصرة، ثم عاد إلى وطنه بعد أن غاب عنه ست عشرة سنة، وعكف على جمع صحيحه، وقد ابتلى البخارى بفتنة القول بخلق القرآن، فثبت على إيمانه، ولم يخش صولة الحاكم وزيغه، وأفتى بأنه قديم غير مخلوق، لأن القرآن صفة من صفات الله جل شأنه، فأخرج من بخارى مطرودا، وسافر إلى بلده خرتنك بالقرب من سمرقند، فمات هناك عام ٢٥٦هـ، فى ليلة عيد الفطر.

قال عنه ابن خزيمة الحافظ: "ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخارى".

ولقد نشر صحيح البخارى فى البلاد الإسلامية عدة مرات، وطبع عدة طبعات اعتمدت على النص المتداول للفربرى (المتوفى سنة ٣٢٠هـ) وهو أحد الرواة الأول المجازين لرواية الجامع الصحيح، وهذا النص هو الذى قام على بن محمد بن عبد الله اليونينى (المتوفى سنة ٧٠١هـ) بإعداده، ونشرها الأزهر الشريف فى سنة ١٣١٣هـ.

وقد دأب الناس فى مشارق الأرض ومغاربها على الرجوع إلى البخارى عند الملمات والنوازل، أو عند الحروب والغزوات، ويعكفون على قراءته وختمه بعد قراءة وختم القرآن الكريم، ولهم فى ذلك قصيدة فى ختم البخارى كانوا يلقونها عند الانتهاء من قراءته، وهى:

هذا البخارى بحمد الله قد ختما ... وليس فيه حديث واحد كتما

لكن قرأناه أبواب مبوبة ... مملوءة أدبا موقورة حكما

وقد قرعنا به الأسماع فانفتحت ... من بعد ما مُلِيتْ من قبله صمما

وأصبحت كل عين من بصائرنا ... للحق مبصرة ليست تخاف عمى

هذا الكتاب الذى قد جاء جوهرة ... علت له قيمة قد فاقت القيما

هذا الكتاب الذى نرجو الشفاء به ... هذا الكتاب به نستدفع الألما

هذا الكتاب الذى فيه الدواء لنا ... هذا الكتاب الذى للداء قد حسما

من روضة كان فيها الشيخ ألفه ... هبت لنا نسمة قد أحيت النسما

لا يلتذْ به إلا الخبير ولا ... يحلو مكرره إلا لمن فهما

كم قد كشفنا به كربة عظمت ... وكم طردنا به من حادث هجما

كأن أسطره من عنبر رقمت ... كأن ألفاظه زهر قد ابتسما

ما للبخارى نظير فى جلالته ... ومثله حافظ قد أمسك القلما

وقد كان وهو صغير السن مجتهدا ... وكان ذا همة قد فاقت الهمما

كأنما صدره بحر يموج ذكا ... كأنما ذهنه غيث قد انسجما

شرقا وغربا على حفظ الحديث سعى ... دهرا ولا عربا أبقى ولا عجما

وألفُ شيخ له فى الأرض وهو على ... تلك المشايخ فى علم الحديث سما

كم قلبوا من أسانيد الحديث له ... بالأمس فاقتسموا ما بينهم قِسَمَا

فردهم مثل ما كانت وصححها ... وصار فى علمهم قدامهم عَلَما

وما أضر به المكر الذى مكروا ... لكن أقر له بالعلم من علما

فكــل حفــاظ بغــداد لـــه اعترفـــوا ... كما زكـــا بالـــذكا محفوظـــة ونمـــا

ومســـلم قـــام بـــين عينيـــه قبّلَـــه ... ولم يدعه البخـــارى يلـــثم القـــدما

هما الإمامـــان فـــى علـــم ومعرفـــة ... كالبحر حين طما والغيث حين هَمَـــا

لو قيل من فاق أهـــل الأرض قاطبـــة ... فى النقل والنقد والتحرير قيل همـــا

الله يجزيهمـــا خيـــرا بمـــا فعـــلا ... والله يجمعنـــا يـــوم اللقـــا بهمـــا

يا سيدى يا رســـول الله يـــا ســـندى ... يا من يحبى لـــه أســـتوجب النعمـــا

يا من بطيبـــة منـــه طيـــب رائحـــة ... وحرمة لـــم تفـــارق ذلـــك الحرمـــا

أنت الحبيب الذى طاب الحـــديث لـــه ... أنت الذى يستقى من بحرك العلمـــا

أنت الذى للعلا فـــوق البـــراق عـــلا ... أنت الذى قد سما من فوق كل سما

أنت الـــذى بـــك فـــى دنيـــا وآخـــرة ... من ربنا نرتجى الأفضـــال والنعمـــا

أنت الذى لم يخب من أنـــت شـــافعه ... أنت الذى بك كل الخلق قـــد رحمـــا

وأنت أفضل من صلى وصـــام ومـــن ... سعى وطاف ومس الركن واســـتلما

يا مـــن صـــحابته نـــالوا بصـــحبته ... فضـــلا فأمتـــه فاقـــت بـــه الاممـــا

أنت الشفيع ونحـــن المـــذنبون ومـــا ... فى جمعنـــا مـــذنب إلا وقـــد نـــدما

ولا ذكرنـــا لـــذنب كـــان مـــن زلـــل ... إلا نثرنـــا دموعـــا خولطـــت بـــدما

وقـــد ختمنـــا حـــديثاً أنـــت قائلـــه ... يا من به ربه للرســـل قـــد ختمـــا

فاشفع لنـــا ولكـــل المســـلمين فمـــا ... شفعت فى مســـلم إلا وقـــد ســـلما

أقِلْ عُبَيْـــدًا بـــنظم الشـــعر يمـــدحكم ... مستشفعا بك فى الذنب الذى عظمـــا

وها أساس القوى بالضعف منه وهـــا ... شبابه مذ غزاه الشيب قـــد هَرِمـــا

يا سيدى يا رســـول الله خــذ بيــدى فأنـــت شـــافعنا يـــا ســـيد الكرمـــا

وأنت أفضل من لبى وطـــاف ومـــن فى مدح أوصافه قد حـــارت العلمـــا

إن العبادات فى الإسلام ثابتة لا تقبل أى تغيير، كما أن هذه العبادات تمتاز عن غيرها من العبادات بأنها لا يقصد منها مجرد التعبد بل أن تعود علينا بالنفع فى دنيانا والثواب عليها فى الآخرة، فالإسلام ليس دين عبادة فقط وإنما هو نهضة دينية مدنية معا وهو لهذا ومن هذه الجهة، يتسع للتجديد الذى يسعى إلى نهضة المسلمين فى أمور دنياهم قبل أخراهم.

التجديد وأسبابه:

إذا كان خبر السماء قد انقطع بانقطاع الوحى ونزوله، فإن خبر الأرض لم ينقطع، ولن ينقطع أبدا عن السماء، إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها، فالعبادات والمناجاة والدعوات كلها سبل قوية للاتصال، وحبال متينة تربطنا بالسماء، ولا دهشة ولا عجب من انقطاع خبر السماء، بعد أن بين لنا نبينا الكريم كل وسائل الهدى لكى يتصل الإنسان بخالقه عز وجل.

والله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، محيط بهم، يشملهم برحمته وعطفه، ويهيئ لهم من أمرهم رشدا، ويمن عليهم بصفوة من العلماء والأولياء الصالحين ليجددوا لهم دينهم، ويفقهوهم فيه ليكونوا ورثة أنبيائه، قال الرسول الكريم: **"العلماء ورثة الأنبياء"**.

فإنه لما انقطع خبر السماء بانتقال خاتم المرسلين المصطفى ﷺ، اختار الله سبحانه وتعالى من عباده المخلصين رجالا ممن كرمهم بالعلم والحكمة والتقوى لكى يجددوا للمؤمنين دينهم، ويفقهوهم فى أمور دينهم ودنياهم حتى لا تضل أقوامهم عن الصراط المستقيم، وحتى لا تكون لهم على الله حجة بعد الرسل،

وخص العاملين منهم بالمرتبة والشرف فى الدنيا والآخرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [1].

روى أبو داود فى سننه بإسناده إلى أبى هريرة ﷺ أنه قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"، والسر فى ذلك **أولا**: أن الناس تحتاج دائما إلى مُذَكِّر يذكرهم بأمور دينهم ودنيهم، ويجدد عهده، فلطف الله تعالى بهذه الأمة، وأقام لها على رأس كل قرن من يجدد لها دينها.

ثانيا: لما روى عن النبى ﷺ أنه أصبح ذات يوم فقال لأصحابه: "ارأيتم ليلتكم هذه؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: "**فإنه لا يبقى إلى مائة سنة ممن هو اليوم على وجه الأرض أحد**"، هذا يعنى أن الموجودين من الصغار والكبار من تلك الليلة يموتون كلهم، وينقرض أهل ذلك القرن إلى تمام مائة سنة من تلك الليلة، وينشأ قوم آخرون، فتكمل المائة على قوم آخرين من غير الموجودين الذين شاهدوا الرسول ﷺ فى ذلك الوقت، وحملوا عنه العلم، وعرفوا الشريعة والهدى، فلابد ممن يجدد لهم الدين ويعرفهم ما جهلوه، ويقيم منار الشريعة التى أهملوها. وبذلك يكون أهل القرن الثالث والرابع أحوج من أهل القرن الثانى إلى من يجدد لهم الدين.

ثالثا: أن هذه الأمة شرفت على غيرها من الأمم فى كل أحوالها، فهى خير أمة أخرجت للناس، وكان قد ظهر فى بنى إسرائيل الأنبياء فى كل عصر، فجعل الله تعالى لهذه الأمة العلماء، قال النبى ﷺ: "**علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل**" ولما

(١) سورة المجادلة آية: ١١.

مر "عزير" النبى عليه السلام على قرية وهى خاوية على عروشها قال: "أنى يحيى هذه الله بعد موتها" فأماته الله مائة عام، تعرض فيها بنو إسرائيل لمن قتلهم واستباح بيضتهم واجتاحهم، حتى لم يبق منهم إلا العدد اليسير، وعدمت التوراة التـى بـين ظهرانيهم، بعد أن دفنها أنبياؤهم، ولم يعلم من بقى منهم بموضع دفنها، فأحيـا الله عزيرا بعد مائة سنة، وأحيا حماره ليريه كيف يحيى الموتى، ثم جـاء إلـى بنـى إسرائيل وهم لا يملكون التوراة، فقرأها لهم عن ظهر قلب، ثم استخرجها من حيث دفنت، فوجدوها كما قرأها، فكان عزير مجددا لبنى إسرائيل دينـهم، وهـى منـة عظيمة، ونعمة جليلة لو كانوا يعلمون.

شروطه:

ولا يشترط أن يكون الشخص الذى يبعثه الله على رأس المائة عالما، بل تارة يكون عالما، وتارة يكون خليفة، وتارة أخرى مُقَدَّمًا أو ملكا مطاعا، وقـد يكـون خليفة وملكا وأميرا فى وقت واحد، فالنبى ﷺ قال: "**يبعث الله لهذه الأمة من يجدد لها دينها**" ولم يقل عالما أو غيره، ويرجع ذلك إلى أن الذى يقيضـه الله سـبحانه وتعالى ليجدد الدين ويحفظه، لابد أن يكون رجلا مطاعا، مقبول القول، تهابه الناس ويرجعون إلى قوله فإذا نهاهم عن بدعة ابتدعوها أطاعوه وامتنعـوا عنهـا، ،إذا ذَكَّرَهُم بما نسوه، سمعوا له، وإذا أمره امتثلوا لأمره.

والملاحظ لمسيرة التاريخ الإسلامى يرى ما طرأ عليه من موجات فكريـة، الموجة تلو الموجة، وهى فى بعض الأحيان موجات عاتية قد تعلو ثم تنحسر، وقد تشتد ثم تضعف، والإسلام شامخ كالطود، لا تؤثر فيه هذه الموجات الفكرية، بـل أثرته وجعلت منه دين الفكر والتفكر والتدبر.

وكان بزوغ هلال الإسلام ونزول القرآن العظيم على نبيه، إيـذانا مـن الله سبحانه وتعالى بمولد عصر جديد قوامه الإسلام والتوحيد.

والإسلام جامع لصلاح الدنيا والآخرة وهو ليس دين عبادة فقط وإنما هو نهضة دينية مدنية معا قصد بها خير الناس وصالحهم دون تمييز بينهم أو تفرقة، فصلح بذلك لكل زمان ومكان، وهو بهذه الصفة يتسع للتجديد فى كل زمان ومكان دون تعصب أو تحيز، فغاية التجديد هى النهوض بالمسلمين بفضل إحياء سنتهم وإماتة البدعة بينهم لكى يساير الحياة ويستجيب لتطورها ومستحدثاتها، فالتجديد إذن حركة دائمة متصلة لصون المجتمع وحمايته، ولذلك ارتبط التجديد بالاجتهاد وأصوله، ولذلك عرف المجددون أيضا بالمجتهدين.

وقد أورد الإمام السيوطى فى أرجوزته "**تحفة المهتدين بأسماء المجددين**"، أسماء هؤلاء العلماء الذين جددوا دينهم على مر العصور، فقال:

الحمد لله عظيم المنة : المانح الفضل لأهل السنة

ثم الصلاة والسلام نلتمس : على نبى دينه لا يندرس

لقد أتى فى خبر مشتهر : رواه كل حافظ معتبر

بأنه فى كل رأس مائة : يبعث ربنا لهذى الأمة

منًّا عليها عالما يجدد : دين الهدى لأنه مجتهد

فكان عليها عالما يجدد : خليفة العدل بإجماع وقر

والشافعى كان عند الثانية   لما له من العلوم السارية

وابن سريج ثالث الأئمة   والأشعرى عده من أمَّه

والباقلان رابع أو سهل   أو الإسفرائين خلف قد حلوا

والخامس الحبر هو الغزالى   وعده ما فيه من جدالى

والسادس الفخر الإمام الرازى   والرافعى مثله يوازى

والسابع الراقى إلى المراقى   ابن دقيق العيد باتفاق

والثـامن الحبـر هـو البلقينـي أو حـافظ الأنـام زيـن الـدين

وعـد سـبط الميلـق الصـوفيَّه لـو وجـدت مائتـه وفيـه

والشرط فى ذلك أن تمضى المائه وهو علـى حياتـه بـين الْفِيَـة

يشـار بـالعلم إلـى مقامـه وينصـر السـنة فـى كلامـه

وأن يكـون جامعـا لكـل فـن وأن يعـم علمـه أهـل الـزمن

وأن يكون فـى حـديث قـد روى من أهل بيت المصطفى وهو قوى

وكونـه فـردا هـو المشـهور قـد نطـق الحـديث والجمهـور

وهـذا تاسـع المئـين قـد أتـى ولا يخلـف مـا لهـادى وعـده

وقـد رجـوت أننـى المجـدد فيها بفضـل إلـه لـيس يجحـد

وآخـر المئـين فيهـا يـأتى عيسـى نبـى الله ذو الآيـات

يجـدد الـدين لهـذى الأمـة وفى الصـلاة بعضـنا قـد أمَّـه

مقـررا لشـرعنا ويحكـم بحكمنـا إذ فـى السـماء يعلـم

وبعـده لـم يبـق مـن مجـدد ويرفع القـرآن مثـل مـا بـدى

وتكثـر الأشـرار والإضـاعة من رفعـه إلـى قيـام السـاعه

وأحمـد الله علـى مـا علمـا وما جلى مـن الخفـاء والعمـى

مصـليا علـى نبـى الرحمـة والآل مـع أصـحابه الكرمـا

قولٌ في المعتزلة

تعد فرقة المعتزلة من أولى الفرق الإسلامية التى ظهرت فى أواخر القــرن الأول الهجرى، وهى حقبة شهدت تفاعلا كبيرا بين الثقافة الإســلامية والثقافــات الأخرى ولا سيما الثقافة اليونانية التى شاعت عقــب ترجمـــة مؤلفــات أرســطو وأفلاطون وغيرهما، وقد لاقت رواجا فى مصر والشام والأندليس وفــى مراكــز متعددة فى إيران، وهم أيضا أول من نادوا بتحكيم العقل وتغليــب الــرأى علــى المحاكاة والإذعان(على ما اعتقدوا) فاستعملوا عقولهم فى مسائل عقائدية، ووضعوا أصولاً لمذهبهم الكلامى، وكانت لديهم نظريات فى العلوم الأخرى كالطبيعة وعلــم النفس والأخلاق، وكان مركزهم فى أول الأمر البصرة ثم بغداد، وظلــوا طــوال مائتين وخمسين سنة، أى من أواخر القرن الأول الهجرى وحتى منتصف القــرن الرابع الهجرى، يضعون قوى العقل فى نصرة أفكارهم، وهم أول من أسس فرقــة كلامية للدفاع عن العقيدة التى بنوها على أساس تأويلات للوحى والفكر والعمــل، وجادلوا كافة الجماعات الإسلامية كالشيعة (ماعدا الزيديــة)، وكــذلك الــديانتين المسيحية واليهودية، ودخلوا فى نقاش مع البوذية والمانوية والزرادشتية، وهم بذلك كانوا المؤسسين لأول مدرسة عقلية فى الإسلام، ولكنً مؤرخى الإسلام يعتبــرون المعتزلة من أهل البدع ويطلقون عليهم اسم القدرية لقولهم أن لا قــدر ســابق وأن الأمر أنفٌ، يعنى مستأنفا.

والواقع أن عقيدة المعتزلة قامت على خمسة أصول أساسية اجتمعوا عليهــا واعتنقوها، ويمكن إيجازها على النحو التالى:

أولا: قولهم فى التوحيد وفقا لمبدأ التنزيه، وذهبوا فى هذا القول إلــى أبعــد مــدى وحتى على حساب نفى الصفات القديمة عــن الله تعــالى: كالحيــاة والعلــم

والإرادة والقدرة، وأنه تعالى حى بذاته، عليم بذاته، مريد بذاته، قادر بذاتـــه، ولذلك فهم يسمون أنفسهم أهل التوحيد.

ثانيا: العدل، وهو القول بأن الله لا يحب الفساد ولا يخلق الشر، وكما أن الله لا يريد الشر، فهو لا يأمر به، والإنسان هو الذى يخلق الشر، ومن هنا أطلقوا علـــى أنفسهم "أهل العدل".

ثالثا: الوعد والوعيد، وهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر ولا بالتوبة وأنه بمنزلـــة بين المنزلتين، وأنه لصادق فى وعده ووعيده، لا مبدل لكلماته.

رابعا: المنزلة بين المنزلتين أى منزلة الإيمان ومنزلة الكفـــر، وهـــى أن الفاســـق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقا.

خامسا: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو قاعدة للسلوك العملى للمؤمن فى المجتمع الإسلامى، وهو واجب على سائر المؤمنين كل على قدر اســـتطاعته بالسيف فما دونه.

فهذا هو ما اجتمعت عليه المعتزلة، ويقول المسعودى ـــ وهو منهم ـــ فـــى مروجه: "ومن اعتقد هذه الأصول الخمسة كان معتزليا، فإن اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال، فلا يستحقه إلا باعتقاد هذه الأصول الخمسة، وقد تتوزع فيما عدا ذلك من فروعهم".

وقد اختلف الباحثون فى أصل كلمة "المعتزلة" والشائع المشهور هو ما جاء به المؤرخون من أهل السنة من القول أن واصل بـــن عطـــاء (المتـــوفى ســـنة ١٣١هـــ) أدار كلامه على أربع قواعد هى نفى الصفات والقول بالقدر والقـــول بالمنزلة بين المنزلتين وأوجب الخلود فى النار على من ارتكب الكبيرة، فلما بلغ شيخه الحسن البصرى عنه هذا، قال: "هؤلاء اعتزلوا"، فتسموا منذ ذلك الوقـــت

بالمعتزلة، هذا ويضيف المقريزى إلى ذلك فى خططه: "وقيل إن تسميتهم بـذلك حدثت بعد الحسن (البصرى)، وذلك أن عمرو بـن عبيـد لمـا مـات الحسـن (البصرى) وجلس قتادة مجلسه اعتزله فى نفر معه فسماهم قتادة المعتزلة"، غير أن المعتزلة أنفسهم لا يذهبون هذا المذهب ولا يقولون بهذا التفسير، فالمسعودى يقول إن واصل بن عطاء هو أول من أظهر القول فى المنزلة بـين المنـزلتين، وهى أصل من أصولهم الخمسة. "وبهذا الباب سميت المعتزلة، وهو الاعتـزال، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام مع ما تقدم من الوعيد فى الفاسق من الخلـود فى النار"، فاعتزالهم يعنى بالنسبة لهم أنهم اعتزلوا منزلتى الإيمان والكفر ونتحوا عن فئتى الضلالة المتمثلتين فى زعمهم، فى أهل السنة والخوارج، وآمنوا بمنزلة بين هاتين المنزلتين وهى أن مرتكب الكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، ولكن يسمى فاسقا.

وفى هذا يقول أبو القاسم البلخى: سميت المعتزلة بهذا الاسم لأن الاخـتلاف فى أسماء مرتكبى الكبائر من أهل القبلة، فقالت الخوارج: هم كفار مشركون، وهم مع ذلك فساق، وقالت المرجئة: هم مؤمنون مسلمون ولكنهم فساق، وقالت الزيديـة والإباضية: هم كفار نعمة وليسوا بمشركين ولا مؤمنين، وهم فى ذلك فساق، وقال أصحاب الحسن: هم منافقون نفاق أصغر وهم فساق، فاعتزلت المعتزلة جميع مـا اختلف فيه هؤلاء، وقالوا: نأخذ بما اجتمعوا عليه من تسميتهم بالفسق، ونـدع مـا اختلفوا فيه من تسميتهم بالكفر والإيمان والنفاق والشرك.

وقال ابن النديم فى "الفهرست" فى المقالة الخامسة: لم سميت المعتزلـة بهـذا: قال المشهور عند علمائنا أن ذلك اسم حدث بعد الحسن، قال: والسبب فيه أن عمـرو بن عبيد لما مات الحسن، وجلس قتادة مجلسه، فاعتزله عمرو ونفر معـه، فسـماهم قتادة المعتزلة، واتصل ذلك بعمرو فأظهر تقبله والرضاء به وقـال لأصـحابه: إن الاعتزال وصف مدحه الله تعالى فى كتابه، فهذا اتفاق حسن، فاقبلوه.

وادعى بعض المفكرين أن حركة المعتزلة كانت فى الأساس حركة سياسية موجهة ضد الأمويين، وأنها ناصبتهم العداء، وهو ما يفسر احتضان العباسيين لها قبل اعتلائهم السلطة، وأنها ظلت العقيدة الرسمية للخلافة العباسية طوال قرن من الزمان، وهو قول يخالف الواقع والحقيقة، وربما حدث شيء من هذا أيام المأمون ولفترة قصيرة جدا، والواقع أن المعتزلة جميعا سواء فى البصرة أو فى بغداد، استمروا يناضلون باسم العقل فى سبيل الدين، إلى أن جاء عصر المأمون، فتقرب منه معتزلة بغداد، وبدأوا يفرضون باسمه أفكارهم وتعاليمهم على الناس، وما محنة خلق القرآن إلا أصدق شاهد على ذلك، وهى المحنة التى عانى منها المسلمون — وعلى رأسهم الإمام ابن حنبل — أشد المعاناة، وقد أدى تشددهم وتعنتهم إلى أفول مجدهم على يد الخليفة المتوكل، وحاربهم الناس فى آرائهم وآثارهم، فأحرقوا كتبهم وقضوا على معظم مؤلفاتهم، ومع ذلك فإن أثرهم ظل كبيرا عند أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى دين يخضع لمعايير العقل، وهم على وجه الخصوص الذين مهدوا السبيل أمام الفلاسفة، وكانوا مثلهم يحلمون بالتوفيق بين حكمة الإغريق والوحى المنزل، ولكن المعتزلة عرفت قمة عنفوانها على يد أبى هذيل العلاف (المتوفى سنة ٨٤٩)م والنظام (المتوفى سنة ٨٤٥م)، ومنهم أيضا بشر بن المعتمر، ومعمر بن عباد، وأبو عثمان الجاحظ وأبو على الجُبَّائى وابنه أبو هاشم، ومن أبرز ممثلى مدرسة الاعتزال المتأخرة الزمخشرى (توفى سنة ١١٤٠م) صاحب التفسير.

وقد ذكر المقريزى فى "خططه": أن عدد فرقهم وصل إلى عشرين فرقة، ولا شك أن كل فرقة منها كانت لها تخريجاتها وأفكارها، إلا أنها لا تحيد فى ذلك عن الأصول الخمسة الأساسية للمعتزلة.

وقد تأثر المعتزلة بالفلسفة اليونانية، وبتأثير هذا الفكر اليونانى استطاع المعتزلة صياغة آرائهم فى نسق علمى محكم.

وقد أطلق على المعتزلة عدة أسماء أخرى منها الثنوية: وسموا بذلك لقولهم الخير من الله والشر من العبد، والواردية: سموا بذلك لقولهم لا يدخل المؤمنون

النار وإنما يردون عليها، ومنهم الحرقية لقولهم الكفار لا تحرق إلا مرة، والمضنية: القائلون بفناء الجنة والنار، والواقفية: القائلون بالوقف فى خلـق القـرآن، ومـنهم اللفظية: القائلون أن ألفاظ القرآن غير مخلوقة، والملتزقـة: القـائلون أن الله بكـل مكان، والقبرية: القائلون بإنكار عذاب القبر.

وأقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة أصحاب الحسين النجار وبشر بن غيَّات المريسى، وأبعدهم أصحاب أبى الهُذيل العلاف شيخ المعتزلة.

ومع ندرة المصادر الخاصة بالمعتزلة، والتى نفسرها بحرق الناس لكتـبهم ومؤلفاتهم فى عصر المتوكل، فإن نشر كتابى القاضى عبد الجبار "المغنى" و"شرح الأصول الخمسة" وكتاب "الانتصار" للخُياط وكتاب "مقالات الإسلاميين" للأشعرى، قد أضاف الكثير إلى معلوماتنا السابقة عن المعتزلة، والملاحظ أن هذه المؤلفـات تضم بين طياتها ثروة من المصطلحات الفلسفية والألفاظ والعبارات بلغـة عربيـة خالصة، ولا غرو فى ذلك، فبلاغة واصل بن عطاء وأبى الهذيل والنظام والجاحظ، غنية عن البيان، وهى مضرب الأمثال ومثار الإعجاب.

ومازالت عقيدتهم تطالعنا فى إطار الأفكار التى تروجها الزيدية فـى أيامنـا هذه، وقد دخلت مفرداتها عقائد الشيعة الاثنى عشرية وعقائد الأشاعرة، بل ودخلت حججهم اللاهوت المسيحى واليهودى على يد موسى ميمون.

ابن حزم القرطبي والمذهب الظاهري

نشأ ابن حزم شافعي المذهب في وسط كان معظمه يتبع المذهب المالكي الذي كان منتشرا في بلاد الأندلس.

ولكنه بعد أن شب عن الطوق صار ظاهريا أي من أتباع أهل الظاهر، وأصبح هو المدافع والمناصر عن هذا المذهب الفقهي في تلك الربوع، وثبت عليه إلى أن مات بعد أن ألّف فيه العديد من الكتب القيمة.

والمذهب الظاهري هو المذهب الذي أسسه داود علي بن خلف الأصفهاني، المولود في الكوفة سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م من أب عراقي وأم أصفهانية.

وهو أحد الأئمة في الإسلام، درس الحديث على كبار مشايخ البصرة ونيسابور وبغداد، التي استقر بها حيث برع في التدريس والإفتاء، وألف في الأصول والفروع، وكان من المتعصبين للإمام الشافعي وصنف في مناقبه كتابين.

وهو إمام المدرسة الظاهرية التي سميت بهذا الاسم لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس، وكان أتباع هذا المذهب الفقهي يأخذون بظاهر النص ويتمسكون بحرفية القرآن المنزل والحديث المتوارث عن رسول الله ﷺ، وينبذون ما جاء به الفقهاء والعلماء من أساليب للبت في المشاكل العويصة كالرأي والقياس والتقليد والتعليل وغيرها، وهم يرون أن أصول الفقه في القرآن والسنة وفي الإجماع الذي يقتصر على إجماع الخلفاء الراشدين دون من سواهم، وينفون ما أعجب به المتكلمون من القول بما وراء الطبيعة، فالإنسان في نظر الظاهريين يجمع بين الصفات الطبيعية اللازمة التي توصله أولا إلى المعرفة أي إلى المعطيات الأولية لحواسنا (السمع والبصر والشم واللمس..)، وثانيا إلى المعطيات الخاصة بالعقل.

وثالثا وأخيرا إلى الإفادة مما جاء فى الكتب المنزلة فى معناها الظـــاهر أى الناسخ والمنسوخ، وإعطاء الأولوية للعام قبل الخاص، فإذا ما ترك العقل لحواســـه ولما جاء فى الكتب المنزلة، فإنه قادر على إثبات أصل التوحيد ووحدانية الخـــالق ومبدأ خلق العالم أو حدوثه.

وكانت هذه الآراء سببا فى قيام الإمام أحمد بن حنبل بمنع داود الظاهرى من الدخول عليه أو التحدث معه وتابع ابنه محمـــد ــ بعـــد أن تـــوفى والـــده ــ داود الظاهرى سنة ٢٧٠هـــ/ ٨٨٥م، كما تابع تلاميذه نشر المبادئ الظاهرية خاصة فى المشرق.

وقد تأثر ابن حزم فى شبابه بهذا المذهب فتحول إليه كلية وعمل على نشره وتطبيقه فى الأندلس، وهو الذى أعطاه شكله العلمى المنسق، مما ساهم فى انتشاره فى بلدان المغرب واحتدام النقاش المستمر داخل المدارس والاتجاهات الفقهية هناك.

فقد حاول ابن حزم انطلاقا من الأفكار الظاهرية التى تبناها تطبيقا على آراء من سبقوه من المعتزلة والأشاعرة والحنابلة والمالكية وغيـــرهم، وعـــارض بهـــا توكيدات "الدهريين" الذين نادوا بأزلية المادة والزمان والمكان.

وعاش حياته فى منازلات كلامية شديدة دخل بها فى مناقشات حاميـــة مـــع آراء ومذاهب المتقدمين، وكان لا يقول بشيء من القياس لا الجلى ولا غيره، ولكنه مع ذلك كان من أشد الناس تأويلا فى باب الأصول وآيات الصفات وأحاديثها، وقد كان إلى جانب ذلك كثير الوقيعة بين علماء عصره بلسانه وقلمه، فأورثه ذلك حقدا فى قلوب أهل زمانه، ومازالوا به حتى بغضوه إلى ملوكهم فطردوه عن بلادهم.

وقد عاش ابن حزم فى أحلك أيام الدولة الإسلامية فى الأندلس، وشاهد بنفسه الأزمة الحاسمة التى مرت بها فى عصر ملوك الطوائف.

فقد ولد ابن حزم فى مدينة قرطبة سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، وكان أبوه وزيرا للحاجب بن منصور، فشب فى حياة مترفة ــ إلا أن سقوط الدولة العامرية التى كان الحاجب المنصور قد أرسى قواعدها ــ أطاح بمجد الأسرة.

وتقلبت بابن حزم الأحوال بعد ذلك، إلى أن عاد إلى مسقط رأسه "قرطبة" حيث وزر لعبد الرحمن الخامس سنة ١٠٢٣م، وعندما خرج من خدمته شعر بأن تجربته السياسية قد حطمت مثله العليا فى الحياة، وتاقت نفسه للعلم والتأليف، فتفرغ لهما وانكب عليهما حتى وفاته.

وكان ابن حزم قد حصل على درجة عالية من العلوم الإسلامية، فضلا عما كان يتمتع به من ذكاء وحدة ذهن مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب، كما قال الذهبى فى "تذكرة الحفاظ".

وقال صاعد فى تاريخه: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعرب والعربية والآداب والمنطق والشعر.

وقد أخبر الشيخ ابن حزم أن سبب تعلمه الفقه يرجع إلى أنه دخل المسجد ولم يركع تحية المسجد، فنهره أستاذه، فأصابه الخزى، وهانت عليه نفسه، وتوجه إلى أحد الفقهاء وسأله الابتداء بقراءة العلم وطلب منه الإرشاد، فدله على كتاب الموطأ لمالك بن أنس ﷺ، فبدأ به عليه قراءة وتتابعت قراءاته عليه وعلى غيره من الفقهاء نحو ثلاثة أعوام.

ولما تفرغ ابن حزم للعلم، واظب على التأليف كذلك، فخلف لنا ثروة ضخمة فى شتى المعارف تقدر بأربعمائة مجلد فى قريب من ثمانين ألف ورقة، أحرق منها الكثير ومُزق علانية بمدينة إشبيلية عندما دسوا له الدسائس واتهموه وشنعوا عليه، وأخرجوه

من ديارهم، ولم يزل مشردا ينتقل من بلد إلى أخرى إلى أن انتهى إلى بلدة "ليلة" حيث توفى فى سلخ شعبان سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م.

ولم يكن له أثناء حياته مصاحبا سوى الشيخ ابن عبد البر النمرى (المتوفى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، وكان أكبر مناوئ له الشيخ ابن خلف الباجى (المتوفى سنة ٤٧٤هـ) ويقال إن الباجى ـ وهو شارح "الموطأ" ـ ناظره يوما فقال لابن حزم: "أنا أعظم منك همة فى طلب العلم، لأنك طلبته وأنت مُعان عليه، تسهر بمشكاة من ذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل زيت"، فقال له ابن حزم: "هذا الكلام عليك لا لك، لأنك طلبت العلم رجاء الحال تريد تبديلها بمثل حالى، ولكنى طلبته لأرجو نفعه دنيا وأخرى".

وقد هوجم ابن حزم بعد مماته، هاجمه القاضى أبو بكر بن العربى (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، وشن هجومه عليه فى كتابه "القواصم والعواصم" أما من وقف إلى جانبه ودافع عنه وعن مذهب الظاهرى، فهو الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) الذى صنف فى ذلك كتابه "المعلى".

ومن أشهر المؤلفات التى خلفها لنا ابن حزم موسوعته الجدلية "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" التى تناول فيها مختلف الأديان والمذاهب والملل والفرق اعتمادا على معلوماته الواسعة ومناقشاته ومناظراته التى أجراها بنفسه مع أهل الديانات والمذاهب، وكان له مع يهود غرناطة ـ خاصة ـ مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة.

أما كتابه "جمهرة الأنساب" فقد صدره بجملة من الأحاديث الدالة على فضل النسب، ثم ذكر أولاد عدنان على سبيل الإجمال، ثم ذكر قبائل العرب وأنسابهم وبطونهم وأفخاذهم.

وقد عنى ابن حزم بعلم المنطق وألف فيه كتاب "التقريب لحدود المنطق" خالف فيه أرسطو ــ واضع هذا العلم ــ فى بعض أصوله.

ويعتبر كتابه "طوق الحمامة فى الإلف والإيلاف" بمثابة رسالة فى الحب الإنسانى، كتبها بمدينة شاطبة حوالى عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، وبين فيه ماهية الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه، وصفاته المحمودة والمذمومة، وهو يرى أن الحب الشخصى المحسوس إنما يبدأ "بالاستحسان" الذى يتبعه "الإعجاب" الذى يولد بدوره الألفة التى توصل "الكلف" ويبلغ ذروته فى حالة "الشغف" ويتضح من قراءة هذه الرسالة أنها كتبت على دفعات ولم تكتب دفعة واحدة، وقد تدرجت هذه الدفعات بتدرج تجاربه الشخصية.

هذا وقد تنبه المستشرقون فى مطلع هذا القرن إلى أعمال ابن حزم، فاهتموا بحياته ومؤلفاته.

وقد قام المستشرق الأسبانى آسين بلاسيوس بدراسة كتابه "طوق الحمامة" ــ المذكور آنفا ــ ثم ترجم إلى اللغة الأسبانية كتابه "الأخلاق" ثم كتابه "الفصل" الذى ترجمه كله ترجمة ممتازة زودها بشروح مستفيضة، وذلك فى خمسة مجلدات، الأول منها دراسة حول حياة ابن حزم، وقد نشرت هذه المجلدات فى الفترة من ١٩٢٧ ــ ١٩٣٢م، وسار على نهجه عدد آخر من المستشرقين من أمثال جارسيا جوميز الأسبانى، وندا طوميش وروجيه إرنا لويز الفرنسيين. فقاموا بترجمة مؤلفاته وتناولوه بالبحث والدراسة.

ولاشك أن الاهتمام المتجدد بدراسة ابن حزم وبمؤلفاته وأفكاره فى عالمنا العربى سيعود علينا بالنفع الكبير، وسيشكل إضافة هامة إلى الفكر الإسلامى، وسيساعدنا حتما على إيجاد الحلول للعديد من مشكلاتنا المعاصرة.

هل كان العلماء يتحاسدون ويتباغضون

لم ينتصب العلماء في ماضي الزمان للتصنيف إلا رجاء لحصول الأجر لهم عليه من الله سبحانه وتعالى وابتغاء لنيل الثواب يوم المآب، وسعيا إلى الذكر الجميل، ورغم الصعوبات الجمة التي كانوا يلاقونها في سبيل ذلك فلم يخلو من الطعن فيهم ورميهم بسهام الذم والقدح في مؤلفاتهم، وكان النقد عندهم هو تتبع العثرات والهفوات وما طغى به القلم، فانعكست الأمور وانقلبت الحقائق، وصار من صنف كتابا إنما يجعل عرضه غرضا ونفسه هدفا، ومنشأ ذلك كله يرجع إلى الحسد لكل من أبرز تأليفا واطلع عليه غيره من أهل عصره، ورأى غيره أنه لا يمكنه الإتيان بمثله، فتشتعل فيه نار الحسد وتتحرك فيه مشاعر البغض والحقد ولا يجد هذا الشخص له سبيلا إلا التصدي بالطعن فيه وذمه وتنقيصه لينفر الناس حتى لا يتميز عليه بذلك وحتى لا يتميز عليه غيره، وكانوا لا يتقون الله في نقدهم اللاذع ولم يراعوا في ذلك أبسط قواعد الأدب أو يتورعوا عن ذلك عملا بما جاء في كتاب الله العزيز ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾، ويقول الرسول ﷺ: **"إن الله تعالى عند لسان كل قائل، فليتق الله".**

والشخص من هؤلاء إذا نظر في كلام غيره نظرة سخط مبغض متعصب ملئ غيظا، فإذا عثر على ريبة عض عليها بالنواجذ وطار بها فرحا كأنه لقي "لُقيَّته" وطاف بها على الناس في أماكنهم وقال: انظروا إلى فلان هذا الجاهل.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة : ولكن عين السخط تبدي المساويا

لو كان يخشى الله تعالى لأوقف صاحب الكتاب عليها فيصلحها، ولكنه إن فعل ذلك يفوت على نفسه مقصوده من التشنيع والتنقيص، ولكن هذه سنة الله في الذين خلوا من قبل.

ومن الأمثلة البارزة فى هذا الصدد ما حدث لحجة الإسلام الغزالى لما أبرز كتاب "إحياء علوم الدين"، فثار عليه علماء عصره وبالغوا فى إيذائه حتى بالغ بعض المخذولين فأفتى بوجوب إحراقه، وجمع سلطان المغرب يوسف بن تاشفين ما فى بلاده من نسخه وأحرقها، وقال ابن الجوزى عنه: هذا رجل طوى بساط الشريعة.

ولما ألف الحريرى مقاماته حسدوه وقالوا للسلطان: سرقها! فأحضروه وقال له: هذه خمسون مقامة، فإن كانت من إنشائك فزدها واحدة وإلا عاقبتك، وحبسه ومنع دخول أى إنسانٍ إليه. فزادها واحدة فى ليلته.

ويذكر أن التاج السبكى عندما ألف كتابه "جمع الجوامع" وكان بالشام حينئذ، وشوا به فى مصر ورموه عند السلطان بأفظع التهم حتى أحضروه على البريد فى القيد والزند، فبرأه الله منها، وقالوا: إن السلطان أطلقه وألبسه خلعة.

وقد حدث نفس الشيء مع الحافظ مغلطاى عندما أصدر كتابه "الروض الزاهر"، حسدوه وقالوا للسلطان: هذا كله خطأ، فنادى فى سوق الكتبيين حيث كان الكتاب يباع: إن من اشترى هذا الكتاب أو باعه شنق.

ولم يخل الإمام الرازى عندما وضع تفسيره من حسد الحساد وشنعوا عليه وقالوا: فيه كل شيء إلا التفسير، ولما ألف الإمام البقاعى "المناسبات" ثاروا عليه ورموه بالكفر وقالوا: هو ينقل من التوراة والإنجيل، وذلك لا يجوز، وأفتى جماعة بوجوب إعدامه، وأمر السلطان بإحراق الكتاب وضرب مؤلفه ونفاه.

ولما ألف الإمام الجلال السيوطى ما ألف قال السخاوى: "ما الذى فعله جلال الدين؟ احتوى على المدرسة المحمودية وعبر عنها ما بين ديباجة وورقة ونسبها لنفسه" وعندما ألف كتابه "إسبال الكساء على النساء" ووقف عليه الشمس الجوجرى قال: قد غلط جلال الدين ثلاث غلطات فى هذه الثلاث وريقات، وقام معاصروه من

العلماء عليه وآذوه، فكانت تآليفه يطاف بها للبيع بسعر الورق الأبيض، فلا يرغب فيها أحد ولا يشتريها، وكان المجاورون يضربون كل من يكتبها ويوزعها سـرا، ويخرجوه من جامعهم، وهذا كله سببه الحسد وما يضيع الله حقا لأحد.

ومر الشيخ ابن حجر الهيتمى بمثل هذا، عندما اختصر "الروض" وشرحه فى أربعة أجزاء وسماه "بشرى الكريم" فظفر منه بعض الناس بثلاثة فسرقها وأعدمها، فكان ذلك سببا فى تركه مصر وإقامته بمكة.

ولما ألف شيخ الإسلام زكريا الأنصارى "شرح البهجة" قالوا: هذا ليس له بل شاركه فى عمله رجل أعمى، وصاروا يسمونه "شرح الأعمى والبصـير" وقـال آخرون: "قد أذهب بهجة البهجة".

ومازال الناس هكذا من قديم، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يسلط الله علـى خواص خلقه الأعداء والحساد حتى لا تركن قلوبهم لغيـر الله، وليـدوم افتقـارهم وضراعتهم إليه ولا يشغلهم الفرح بما أوتوا من ذلك.

والواقع أن المصنفات تتفاوت فى الحظوظ إقبالا وإدبارا، فمن مرغوب فيـه ومرغوب عنه، ومتوسط بين ذلك، ولا مراء أن النقد مستحب ومستصوب على ألا يصل إلى نوع من التنفيس عن الحقد والحسد والمباغضة.

عن تفسير الأحـــلام

اهتم العلماء منذ أقدم العصور بالأحلام وتفسيرها وبتأويل المنامات والتعبير عنها، وظلت هذه الأحلام مبعث انبهار واندهاش للإنسان العادى وبــل ومصــدر خوف وقلق، وحاول بقدر الإمكان شرح هذه الظاهرة التـى لا إرادة لــه عليهــا، وإيجاد تفسير لها، وأصبحت إشكالية من الإشكاليات التى أرقت البشرية ومازالت، فقد عرف الإنسان على التوالى عالم اليقظة وعالم الأحلام حيث تختلط المــؤثرات الذهنية بالأماكن والبقاع والأشخاص بحيث أصبح علم تفسير الأحلام إرثا مشــاعا لكل البشر يتألف من حالات الفزع والسرور، والسياحات مــع المــوتى وخــلال الأرض والسماء والجنة والنار ومتاعب الحياة اليومية ومتطلباتها، ولقد كان الحلــم يعد حقيقة دينية عند السلف ثم حقيقة ميتافيزقية عن الخلف بعد أن تأثر بالحضـــارة اليونانية، أصبح هذا الحلم حقيقة نفسية (سيكولوجية) فى عالمنا المعاصر، وقد أثبت علم النفس الحديث أن الأحلام لا تعبر إلا عن الماضى لا عــن المســتقبل لأنــه مشروط بأحداث وتطورات حياة شخص معين، ومع ذلك فإن كل التغييرات التــى طرأت على تأويل الأحلام وتفسير المنامات حديثا لم تتمكن مــن أن تحــل محــل المفاهيم القديمة أو إضفاء الصيغة العلمية عليها بصورة مؤكدة، ورغم كل الجهــود التى بذلت من القائمين بتعبير الأحلام فى سبيل تزويد هذا الفن بالمبادئ والتقنيات، فإنهم مازالوا يقتنعون بأن تعبير الأحلام إنما يظل قائما على أساس القياس والخبر والمقابلة والحدس، فمن وراء الأحلام البسيطة فى مظهرها وغير المتجانســة فــى مضامينها يكتشف المرء، فقيرا كان أو غنيا، أنها مزيج ضــخم مــن العواطــف والطموحات والخصومات والمنافسات التى تعكس حياته الاجتماعية بحلوها ومرها، والتنفيس عنها بصورة لا إرادية.

فالرؤيا من ناحية اللغة: هو ما رأيته فى منامك والجمع رؤى، والحلم: هو الرؤيا فى المنام وجمعه أحلام، أما عبارة تعبير الرؤيا فمعناها تفسيرها والإخبار بآخر ما يئول إليه أمرها، والتأويل هو التفسير لهذه الرؤيا، والتفسير والتأويل واحد، والمراد بهما الإبانة وكشف المراد عن المشكل، وقد تناول العلماء موضوع تعبير الرؤيا وتنازعوا فى أسبابها وماهيتها وكيفيتها، وألفوا فى ذلك الكثير من الكتب والرسائل، وبرع منهم فى ذلك محمد بن سيرين الذى يعتبر إمام هذا العلم وأميره بلا منازع، وله فى ذلك مصنفات قعدت لهذا العلم وأرست قوانينه ومناهجه، وقد اشتهر هذا العَلَم فى العصر العباسى ولاسيما على يد الخليفة المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨هـ) الذى يقال: إنه رأى أرسطو فى المنام وتحدث معه فى هذا الشأن، وناقشه فى كتابه "تعبير أرسطو" الذى كان حنين بن إسحاق قد ترجمه إلى العربية، وأولع المأمون بهذا العلم ومازالت هناك رسالة تحمل اسمه ألفها هارون بن عباس البغدادى المتوفى سنة ٥٧٢هـ، وأطلق عليها اسم "التعبير المأمونى"، وقد بدأ هذا العلم على يد الإمام سعيد بن المسيب وهو من التابعين الذين عاشوا فى عصر الخليفة عبد الملك (٧٣ ــ ٨٦هـ) الذى أخذ هذا العلم عن أسماء بنت الخليفة أبى بكر، أما حجة هذا العلم الإمام محمد بن سيرين (١١٠هـ)، فهو يعتبر مؤسس هذا العلم كما قال الجاحظ (٢٥٥هـ) وابن قتيبة (٢٧٦هـ) وغيرهما، وتوالت بعد ذلك المصنفات فى هذا العلم وكثر عدد مؤلفيها بحيث وصل عددهم إلى نحو (٧٥٠٠) مؤلف كما جاء فى "طبقات المعبرين" لحسن بن حسين الخلال وطبقا لما نقله إلينا أبو سعيد نصر بن يعقوب الدينورى (نحو ٤٠٠هـ) صاحب القادرى فى التعبير. ويظل الولوج إلى هذا الفن أو هذه المملكة محفوفا بالمخاطر والصعوبات والمزالق والمتاهات.

وحاول العلماء إظهار ما يتمتع به من ثراء وتنوع، وما يضمه من معطيات أثرت على أدياننا فى مختلف العلوم والمجالات، وتأثير الأحلام علم التاريخ مثلا، يعد

شاهدا على ذلك، فقد أخبر ابن الأثير فى تاريخه أن طارق بن زياد عندما أبحر لغزو الأندلس وأثناء عبوره لمضيق جبل طارق، طغى عليه النعاس برهة فرأى الرسـول ﷺ فى المنام ومعه المهاجرون والأنصار، وكلهم مسلحون بسيوفهم ورماحهم، فقـال الرسول ﷺ لطارق: "يا طارق تقدم لشأنك" وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهـد وأن يصدق فى وعوده، ثم رأى طارق الرسول وصحابته يدخلون قبله إلى الأندلس، فاستيقظ من سباته وأيقن بأن النجاح سيكون حليفه، فنادى فى جنوده بأن يتقدموا فإن البحر من خلفهم والعدو من أمامهم"، وقويت نفسه ولم يشك فى الظفر.

وكذلك رؤية عبد المطلب جد الرسول ﷺ، الذى سئل: "لم سميته محمدا؟ قال: لقد رأيت فى منامى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهرى لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب، ثـم عـادت كأنهـا شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بهـا.. وقد عبرت لى بمولود يكون من صلبى يتبعه أهل المشرق والغرب، ويحمده أهـل السماء والأرض، ولذلك سميته محمدا.."

هذه وغيرها من الحكايات والروايات التاريخية التى استندت إلـى الأحـلام وتفسيرها لا تدع مجالا للشك فى أهمية هذا الفن وضرورة الاهتمام به وبأصـوله وقواعده الاحتمالية والقطعية إن وجدت لعله يساعد على التخفيف من حيرة الإنسان أمام أسرار عالم الحياة ومعرفة أسباب تناقضاته وانبعاثاته، ونواميسـه وشـرائعه وقوانينه.

تطور العلم عند العرب

لقد كان العرب على معرفة مبكرة بالمنجزات العلميـــة للثقافـــات الأخـــرى وبخاصة الهندية، غير أن علوم الإغريق كانت هى التى قدر لها أن تـــؤثر تـــأثيرا حاسما فى العلوم العربية، فقد أمدت المذاهب الأفلاطونية والأرسطية والأفلاطونية الحديثة العرب بالمقولات التى استطاع الفكر العربى من خلالها أن يفهـــم ويتمثـــل منجزات العصور القديمة فى ميادين الطب والعلوم، وساعده فى ذلك ما قدمته اللغة العربية منذ البداية من أداة كافية للتعبير العلمى الدقيق. ولهذا فإن بدايـــة الاهتمـــام بالعلوم القديمة عند العرب تعود إلى عهدُ أقدم بكثير من عصر الترجمـــات الـــذى يعتبر حنين بن إسحاق (٢٦٠هـــ) أفضل مترجميه مـــن اليونانيـــة إلـــى العربيـــة وأغزرهم إنتاجا، إلى جانب ميزته فى الطريقة اللغوية التى استعان بها فى تحقيـــق النصوص الإغريقية.

وقد اتسم العلماء العرب بتفوق العديد منهم فى أكثر من حقـــل مـــن حقـــول المعرفة، فلم يقتصروا على العلوم الطبيعية أو الإنسانية فحسب، بل وضعوا وبحثوا وكتبوا فى فروع العلم المختلفة، ومنهم العالم الموسوعى أبو بكر محمد بن زكريـــا الرازى (٣١٣هـــ)، والفارابى (٣٣٩هـــ) وأبو الريحان البيرونى (٤٤٢هـــ).

ويتبين من تطور العلوم عند لعرب عامة أنها مرة بثلاث مراحـــل واضـــحة المعالم هى: المرحلة الأولى وتتمثل فى العمل الذى قام به مترجمون ونقلة عديدون، ثم المرحلة الثانية وهى فترة النضج فى الإنجاز العلمى، وأخيرا المرحلـــة الثالثـــة وهى سنوات الاضمحلال التى استمرت عدة قرون، رغم ظهور عبقرى لامع بـــين الحين والحين.

وخلال المرحلة الأولى لم يقتصر العرب على الوقوف على المعرفة العلمية للبلاد المجاورة أو الأقطار التى فتحوها فقط، بل وفرت لهم هذه المرحلة مدخلا إلى معرفة الاكتشافات الرياضية والفلكية، إما بطريق مباشر (وذلك بالاطلاع على النصوص المكتوبة) أو غير مباشر (عن طريق الرواية الشفهية)، فعرفت إسهاماتهم بخاصية التوفيق بين المصادر المختلفة للعلوم وأعطتها لونا متميزا، وظلت هذه الظاهرة سائدة طوال العصور الوسطى، ويتبين الجهد الذى بذله العلماء العرب فى فهم ما ورثوه من علوم القدماء، فى التراجم الذاتية لبعض هؤلاء العلماء، وفى المقدمات التى كتبوها، فجاءت أعمالهم على درجة كبيرة من الدقة والموضوعية.

وكانت علوم الأمم التى اهتمت بالعلم واستنباطه، كالهنود والفرس والكلدانيين والعبرانيين والقبط والروم واليونان، مهجورة فى عصر الدولة الأموية، ولم تظهر إلا فى أيام آل العباس، وكان أول من عنى منهم بالعلوم أبو جعفر المنصور، وكان مع براعته فى الفقه، مقدما فى علم الفلسفة وخاصة النجوم، وكان محبا لأهلها.

ولما آلت الخلافة إلى المأمون تمم ما بدأ به جده، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه واستخراجه من معادنه، فكاتب ملوك الروم وسألهم مده بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه منها بما حضرهم من كتب أفلاطون وبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم، وأحضر لها مهرة المترجمين، فترجموا له على غاية ما أمكن، ثم كلف الناس قراءتها ورغبهم فى تعلمها، فقامت فى عهده دولة الحكمة وسائر الفنون.

وكانت العلوم عند العرب فى العصر العباسى قمسين: علوما أصيلة وعلوما دخيلة، فالعلوم العربية الأصيلة هى العلوم التى كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام كعلوم اللغة والتاريخ والفراسة وما يشبهها، أما العلوم الدخيلة فهى العلوم التى لم تكن موجودة عند العرب فى الجاهلية، بل دخلت عليهم بقواعدها وتفاصيلها

بعد الإسلام، وهى معظم العلوم العقلية، وتنقسم إلى أربعة أقسام: المنطق، والعلم الطبيعى، والعلم الإلهى، وعلوم التعاليم (الرياضيات والطبيعيات)، وهى علم العدد (الحساب) والجبر والهندسة والفلك والغناء.

ولقد ذهب كثيرون من مؤرخى العلم إلى أن العلم العربى لم يبدأ، إلا حين انتقل مجلس التعليم الطبى والعلمى من الإسكندرية فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى أنطاكية ومنها إلى حرّان ومنها إلى مرو، متخذا مرحلة طويلة انتهت إلى بغداد، ومن ثم بدأت المجامع العلمية فى بغداد حركة الترجمة ناحية والبحث العلمى من ناحية أخرى، وقد استدعى خلفاء بنى العباس هؤلاء التراجمة إلى قصورهم، وبنى المأمون بعد ذلك بيت الحكمة، وبدأ البحث التجريبى فى مختلف العلوم.

وهذا يعنى أن تاريخ العلم عند العرب قد بدأ بهجرة المكتبة اليونانية الإسكندرانية إلى بغداد، ثم أعقبتها هجرة أخرى من بلاد الأعاجم ـ فارس القديمة، تحمل إلى العالم العربى علم فارس، ثم هجرة ثالثة من الهند والسند تحمل الكثير من آراء الهنود فى الطب والفلك والرياضيات.

وعلينا أن نلاحظ أن السبب الرئيسى فى تطور العلم عند العرب هو أنهم قابلوه بروح جديدة فى البحث كانت هى السبب الهام فى تطوره ودعه دفعة قوية إلى الأمام، ونهجوا حياله منهجا جديدا وطريقا فى البحث لم يألفه فى عالم القديم، وأخذوه بمنطق علمى يختلف أشد الاختلاف عن الطريقة الساذجة التى سادت مثلا أبحاث الهنود فى الرياضيات والفلكيات وغيرها، فأنتج لنا هذا المنهج حضارة جديدة متكاملة تسندها روح علمية جديدة لم يعرفها العالم القديم من قبل.

وقد انتقل إسهام العلماء العرب إلى الغرب خلال فترتين محددتين تماما هما: الأولى، وكانت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)

وتوقف هذا الانتقال مؤقتا فى القرن الخامس الهجرى، ثم بدأت الفترة الثانية بقـــوة غير عادية فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)، وأصبح عدد الكتب المترجمة فى صقلية وبخاصة فى أسبانيا، أمرا يثير الإعجاب، وتدفق علم الإغريق والرومان من خلال العقول العربية، وأدمجت علوم العرب ضمن رصـــيد الثقافـــة الغربية، وأدى هذا الإنتاج الغزير والمكثف إلى تغيير شكل المجتمع الأوروبى.

المراحل الكبرى للغتنا الجميلة وآدابها:

ليس من العسير عند دراسة تاريخ اللغة العربية وآدابها، أن نعالجها فى تفصيل وإسهاب إذا كان القصد من ذلك وضع مؤلف ضخم يوفى حق كل فترة من فتراته المتعددة ويستوعب كل مرحلة من مراحل تطوره، مراعيا إبراز الخصائص والسمات الخاصة التى عرف بها فى مختلف البلاد الناطقة بالضاد. ويصبح هذا التقسيم أمرا غير مستساغ إذا جاء فى عجالة قصد بها الإيجاز ورسم الخطوط العريضة التى تحدد مجال هذه الدراسة.

ولهذا فسنكتفى هنا بإبراز أربعة عصور رئيسية لن تحدها أية حدود سوى ما قد تثيره من الرغبة فى الاستدلال وتوضيح الأخطار، مشيرين فى الوقت نفسه إلى أن فترات التاريخ الأدبى لا تتطابق بالضرورة مع مثيلاتها من الفترات التى تتضح حدودها أكثر فى التاريخ السياسى.

المرحلة الأولى:

قبل الإسلام كانت اللغة العربية منطوقة بالدرجة الأولى، فلم يكن هناك وجود للأدب المكتوب، بينما ازدهر الشعر وظهر ضرب من التعبير والإحساس الشعرى، وكان القرآن أول صرح أدبى للعرب، وكذلك الإسلام، الدين المنزل الجديد، العاملين اللذين فجرا نهضة فكرية عظيمة، وإن لم يقف ذلك حائلا دون نظم الشعر الذى كان على النقيض مدعاة لاستمرار الرواية المأثورة وتداولها، وحين أخذ النثر العربى فى الظهور أضحت اللغة مادة خصبة لدراسات العلماء والفقهاء اللغويين الأوائل بقصد استخلاص قواعد النحو ووضع تقويم شامل للألفاظ والمفردات، ولكن

هذه الفترة التى امتدت من العصر الجاهلى إلى عصر الدولة الأموية وانتهت فى العقود الأولى وللقرن الثامن، فترة نشأة الأدب.

المرحلة الثانية:

فى صدر الدولة العباسية اتخذت اللغة العربية شكلها النهائى واتسع متنها وزادت مفرداتها نتيجة احتكاكها بالثقافات الأجنبية وسطع نجم الأدب وتلألأ أولا فى بغداد، ثم فى الأمصار التى كانت تتكون منها الدولة الإسلامية والتى كان يحكمها الولاة من قبل الخليفة، وتجمعت خلال القرنين الأولين للحكم العباسى كل العناصر التى تمخض عنها فكر إنسانى عربى أضفت عليه الثقافات الفارسية والإغريقية والهندية التى تلاقت به والتحمت معه، رونقا آخاذًا جذابًا.

وعلى الرغم من هذه المؤثرات الخارجية، فإن الشعر القديم الذى كان قد خبا وانطفأت شعلته بعض الوقت نتيجة ازدهار نوع من النظم الحديث استعاد مكانته الأولى منذ بداية القرن التاسع، كما عاد للرواية المأثورة مكانتها وقدسيتها.

وعلى النقيض من ذلك، فإن النثر قد أفاد من هذه الظروف الجديدة، وصدرت فى ذلك العصر معظم المؤلفات التى تشكل التراث الأدبى للعرب، وعصر الازدهار هذا لا يساير نهاية الحكم العباسى، فقبل غزو المغول لفترة طويلة (وسقوط بغداد فى عام ١٢٤٨) ظهرت أعراض الاضمحلال على الأدب العربى.

المرحلة الثالثة:

بعد سقوط العباسيين وتقلص السيادة العربية أصبحت اللغة العربية مهددة فى أشد معاقلها قوة، بعد أن دهمتها اللغتان التركية والفارسية وإن لم تستطع إحداهما أن تؤثر فيها أو تنميها، وأدار الغرب الإسلامى ظهره للشرق الإسلامى، وحاول جهده الإبقاء على التراث، ولكنه تقديس الماضى، ومحاكاة الأقدمين، والإحساس

بأنه لم يبق هناك ما يقال أو يكتب، كل ذلك لم يساعد على تفتيح الأذهان أو على ظهور المصنفات القيمة والأصيلة، وكان من النادر خلال هذه العصور المظلمة أن نرى ــ إذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير الذى شاع وذاع ــ أن نرى من يستطيع أن يفيق من غفلته فيلقى ببصيص من الضوء على عالم غارق فى الظلام.

المرحلة الرابعة:

فى النصف الأخيرة من القرن الماضى حيث نشط المصريون وأهل الشام لتنقية لغتهم وتنميتها، محاكين فى ذلك أوربا، وطفقوا يعملون على استحداث أدب جديد، بيد أنهم لم يتخلصوا كلية من أثقال الماضى، وبذلك عادت اللغة تنشط وتنهض وتسلك سبل الحياة، واتخذت حركتها وبدأت تصدر عن روح العصر، وتتمشى مع حاجاته ومتطلباته فى صورة مختصرة ومظهر واضح، وبقيت لغتنا وسيلة للتعبير والتفاهم، وعلينا أن نحافظ عليها وتطويرها لكى تساير لغة هذا الزمن فهى قطعة من حياتنا، وصورة لمجتمعنا ومرآة، وأنتجت أدبا يتسم بالجزالة والسهولة والدقة والوضوح ينعكس فيها تاريخ حضارتنا ومدى تقدمنا ونهضتنا.

فإذا ما أخذنا بهذه المراحل الكبرى للأدب، فإن ثمة سؤال ذى ثلاث شعب يقفز إلى أذهاننا لماذا وكيف ولمن نظم الشعراء الشعر أو كتب الكتاب مصنفاتهم؟

نحسب أنه لكى نظفر بإجابة شافية على هذا السؤال، أن تتكون لدينا فكرة سليمة إلى حد ما عن الطبيعة المتأصلة والصفات المميزة لهذا الإنتاج الضخم الكبير الذى نرجو أن نوفق فى إصدار حكمنا عليه فى نزاهة وتجرد.

تحويل السنين عند العرب

لجأ العرب إلى تحويل السنين منذ العصر العباسى وكانوا يطلقون عليها اسم التوفيق (أو التوفقة) بين السنين الشمسية والقمرية، وكان أول من تنبه إلى ذلك هو الخليفة المتوكل على الله حينما أمر بإلغاء ذكر سنة (٢٤١)هـ ونقل معاملاتها إلى سنة (٢٤٢)هـ.

وكانت السنة عندهم إما سنة طبيعية وهى القمرية أو سنة اصطلاحية وهى الشمسية، فالسنة القمرية أولها استهلال القمر فى غرة المحرم وآخرها سلخ ذى الحجة من تلك السنة، وهى اثنا عشر شهرا هلاليا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ وعدد أيامها فيما قاله الفلكيون ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم تقريبا، ويجتمع من هذا الخمس والسدس يوم فى كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوما ويبقى من ذلك بعد اليوم الذى اجتمع شيء فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد وهكذا إلى أن يبقى الكسر أحد عشر يوما عند إتمام ثلاثين سنة وتسمى تلك السنين كبائس العرب.

أما السنة الاصطلاحية وهى الشمسية، فشهورها اثنا عشر شهرا كما فى السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت عدم دوران سنيها، فجعلت فى أشهرها زيادة فى الأيام أما متفرقة كما فى الشهور السريانية وإما جملة واحدة كما فى الشهور القبطية وسمتها نسيئا، وهو ما حرمه الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ الآية.

وقد اعتمد الشارع فى الإسلام على ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام وآيات بينات كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا

وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ وقـال عـز وجـل: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

أما بالنسبة لمصر فقد تأخر نقل السنين فيها حتى كانت سنة تسـع وتسـعين وأربعمائة الهلالية حيث نقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة، وكان ذلك فى أيام الدولة الفاطمية، ويقول على بن خلف- وهو من كبار كتاب هذه الدولة فى مصـر - فـى "مواد البيان": "والسبب فى انفراج ما بين السنين الشمسية والهلالية أن أيام السـنة الشمسية المدة التى تقطع الشمس الفلك فيها دفعة واحدة، وهى ثلاثمائـة وخمـس وستون يوما وربع يوم بالتقريب حسب ما توجبه حركتها، وأما السنة الهلالية هـى المدة التى يقطع القمر الفلك فيها اثنتى عشر دفعة، وهى ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وسدس يوم؛ فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوما وسدس يوم، فتكون زيـادة السنين الشمسية على السنين الهلالية فى كل ثلاث سنين شهرا واحدا وثلاثـة أيـام ونصف يوم تقريبا، وفى كل ثلاث وثلاثين سنة، سنة بالتقريب".

وقد صدر فى أيام صلاح الدين الأيوبى مرسوم من إنشاء القاضى الفاضـل يقضى بتحويل السنة القبطية إلى السنة العربية، جاء فيه: ".. ولما كان الله تعالى قد أجرى أمر هذه الأمة على تاريخ منزه عن اللبس، موقر عن الكب، وصرح كتابـه العزيز بتحريمه، وذكر ما فيه من تأخير وقت النسئ وتقديمه، والأمة المحمديـة لا ينبغى أن يدركها الكسر، كما أن الشمس لا ينبغى أن تدرك القمر، وسننها بين الحق والباطل فارقة، وسنتها أبدا سابقة، والسنون بعدها لاحقة، يتحاورها الكسـر الـذى يزحزح أوقات العبادات عن مواضعها، ولا يـدرك عملهـا إلا مـن دق نظـره، واستفرغت فى الحساب فكره، والسنة العربية تقطع بحناجر أهلها الاشتباه، وتـرد شهورها حالية بعقودها موسومة الجباه، وإذا تقاعست السنة الشمسية على أن تطـأ أعقابها، وتواطئ حسابها، اجتذبت قراها قسرا، وأوجبت لحقها ذكرا، وتزوجت سنة

الشمس سنة الهلال وكان الهلال بينهما مهرا، فسنتهم المؤنثة وسنتنا المذكرة، وآية الهلال هنا دون آية الليل هى المبصرة، وفى السنة العربية إلى ما فيها من عربية الإفصاح، وراحة الإيضاح، الزيادة التى تظهر فى كل ثلاث وثلاثين سنة توفى على عدد الأمم قطعا، وقد أشار الله إليها بقوله: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾.

واستمر الحال على ذلك أيام المماليك، وفى ذلك يقول القلقشندى فى المرجع السابق: "إن كتاب الدواوين المصرية وأرباب الدولة بها حولوا سنة تسع وأربعين وسبعمائة (وهى سنة الطاعون الجارف العام) إلى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وألغوا سنة خمسين، وكان يقال: مات فى تلك السنة كل شيء حتى السنة".

فى مدلول اليوم والأسبوع والشهر عند العرب

للناس فى مدلول اليوم مذهبان فالمذهب الأول يقول: إن اليوم عبارة عن زمان جامع لليل والنهار؛ ومنهم من يقدم الليل على النهار، ومنهم من يقدم النهار على الليل، وهذا المذهب يعرف بمذهب أهل الهيئة، ويحكى أن الإسكندر الأكبر سأل بعض الحكماء عن الليل والنهار أيهما سابق على الآخر؟ فقال: هما فى دائرة واحدة، والدائرة لا يُعلَم لها أول ولا آخر ولا أعلى ولا أسفل، والمذهب الثانى يقول إن اليوم عبارة عن النهار دون الليل حتى لو قال أحدٌ لزوجته: أنت طالق يوم يقدم فلان، فقدم ليلا لم يقع الطلاق على الصحيح؛ ولذا فإن هذا المذهب يعرف بمذهب الفقهاء لأنهم ينظرون إلى الليل والنهار باعتبارين: طبيعى وشرعى، أما الطبيعى فالليل يكون من لدن غروب الشمس واستتارها بحدبة الأرض إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق إلى غياب نصفها فى الأفق فى المغرب، وأما الشرعى، فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثانى، وهو المراد بالخيط الأبيض من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾، والنهار من الفجر الثانى إلى غروب الشمس، وبذلك تتعلق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما، وكان العرب يقسمون كلا من الليل والنهار إلى اثنتى عشرة ساعة، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهاء أسماء تخصها.

ويقال: إن أول من قسم النهار إلى اثنتى عشرة ساعة آدم عليه السلام، وضمن ذلك وصية لابنه شيث عليه السلام، وعرفه ما وُظِّف عليه كل ساعة من عمل وعبادة.

أما أيام الأسبوع فهى سبعة وقد نطق القرآن الكريم بذكر ستة أيام منها، على الإجمال حيث قال جل جلاله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ

﴿أَيَّامٍ﴾[1]، وأما التفصيل ففى قوله تعـالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[2].

وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ابن جرير من رواية ابن عبـاس رضـى الله عنهما: أن اليهود أتت النبى ﷺ تسأله عن خلق السماوات والأرض، فقال: "خلـق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منـافع، وخلق يوم الأربعاء المدائن والشجر والعمران والخراب، فهذه أربعة أيام، وخلـق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلـى ثلاث ساعات بقيت منه..، وفى الثانية ألقى الآة على كل شيء ممـا ينتفـع بـه الناس، وفى الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود لـه، وأخرجـه منها فى آخر ساعة"، قالت اليهود: ثم ماذا؟ قال: "ثـم اسـتوى علـى العـرش"، ويتعجب ابن كثير فى تفسيره من عدم ذكر يوم السبت، وروى عن أبى هريرة ﷺ، أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى، فقال: "خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيهـا الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلـق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصـر يـوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل".

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.
(٢) سورة فصلت: الآيات ٩ ـ ١٢.

وقد ورد التصريح فى هذا الحديث بذكر الأيام السبعة ووقوع الخلق فيها، وعليه يدل قول ابن عباس ﷺ: أن مدة إقامة الخلق إلى قيام الساعة سبعة أيام كما كان الخلق فى سبعة أيام.

وعلينا أن نتحرز عند الأخذ بهذه الأقوال، فهذا الباب مداره على النقل دون الآراء.

الشهر العربى عبارة عما بين رؤية الهلال إلى رؤيته ثانيا، وعدد أيامه أما ثلاثون وهو التام، أو تسعة وعشرون وهو الناقص، ومدة الشهر عند العرب التى تقوم على رؤية الهلال إلى رؤية الهلال هى أسهل الطرق وأقربها، وعليها جاء الشرع وبها نطق التنزيل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾، والمراد هنا شهور العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، ومدارها الأهلة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسعة وعشرين، الشهر الأول منها المحرم، سمى بذلك لأنهم كانوا يحرمون فيه القتال. الشهر الثانى صفر، سمى بذلك لأنهم كانوا يغيرون على بلاد يقال لها الصَّفرية، الشهر الثالث ربيع الأول، سمى بذلك لأنهم كانوا يُحصّلون فيه ما أصابوه فى صفر، والربيع فى اللغة الخصب، وقيل لارتباعهم فيه، والشهر الرابع ربيع الآخر، كربيع الأول، والشهر الخامس جمادى الأولى، سمى بذلك لجمود الماء فيه لشدة البرد، والشهر السادس جمادى الآخرة، كجمادى الأولى، والشهر السابع رجب، سمى بذلك لتعظيمهم له أخذا من الترجيب وهو التعظيم، والشهر الثامن شعبان، سمى بذلك لتشعبهم فيه لكثرة الغارات عقب رجب، والشهر التاسع رمضان، سمى بذلك أخذا من الرمضاء لأنه وافق وقت تسميته زمن الحر، والشهر العاشر شوال، سمى بذلك أخذا من شالت الإبل بأذنابها إذا حملت لكونه أول شهور الحج، والشهر الحادى عشر ذو القعدة، سمى بذلك لأنهم يقعدون فيه عن القتال لكونه من الأشهر الحرم، والشهر الثانى عشر ذو الحجة، سمى بذلك لأن الحج يتم فيه، والأشهر

الحرم هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ويجوز أن يضاف لفظ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شهر المحرم وشهر رمضان، قـال تعـالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ .

لابد لنا ــ قبل أن نبدأ فى الكلام عن العصور الوسطى، أن نعرف ما تغطيه حقيقة هذه الفترة، فمن الناحية التاريخية، أو التسلسل التاريخى، فالعصر الوسيط يمتد من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن الخامس عشر، وهذا يعنى فى التاريخ الأوروبى بتاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦م) إلى الاكتشافات الكبرى، والواقع أن هذه الألف سنة قد تعرضت لتطورات مختلفة اختلفت باختلاف مختلف بقاع العالم، فإن التغيير الذى حدث فى أوروبا لم يكن هو نفسه التغيير الذى حدث فى العالم البيزنطى أو فى العالم الإسلامى.

وهذا لا يعنى أن هذه المناطق من العالم لم تتأثر ببعضها البعض، بل إنها قد عبرت العصر الوسيط مع استمرار تقاربها مع بعضها البعض ويمكن القول خاصة، أن التغيرات التى طرأت على أوروبا قد تأثرت مرات عديدة بما ساد فى بيزنطة والعالم الإسلامى.

ولكن التسلسل التاريخى وحده لا يكفى لتحديد العصر الوسيط فينبغى أن نحسب حساب لمناهج البحث وعناصره، فإن أصالة هذه المناهج وهذه العناصر تسمح لنا بإطلاق العصور الوسطى على أزمان أحدث، كما هو سائد فى العالم الإسلامى (٦١٢م) وفى الشرق الأقصى.

ومؤرخ العصور الوسطى يعمل فى الواقع أو بالدرجة الأولى وفقا لمصادر مكتوبة أو مخطوطة، كما أنه يستخدم المعطيات الأركيولوجية، والأيقونية، والنميات، ولكنه لا يستخدم إلا القليل النادر، علم النقوش الذى يعتبر العلم الأساسى بالنسبة للتاريخ القديم، وذلك نظرا لنقص الوثائق، ومؤرخ العصور الوسطى بعد أن يقرأ الوثائق المخطوطة يشرع فى طبعها وتحقيقها، وهو يبحث فى النهاية من أجل دراسة دقيقة فى حصر كل ما هو موجود، وأن يطلع على القسم الأكبر منها،

بالعكس من المؤرخ المعاصر الذى يضطر فى أغلب الأحيان إلى مباشرة دراسته عن طريق المعايرة والتصنيفات.

ولما كان المؤرخ لا يصل أبدا إلى الإمساك الكامل بالحقيقة، فإن هذا القول يصدق خاصة بالنسبة للعصر الوسيط الذى يختلف تماما عن عصرنا، فإن معرفة الإنسان معرفة تامة هو أمر بعيد المنال، وليس معنى ذلك هو تثبيط الهمم من أجل سبر أغوار هذا الإنسان، بل هو دعوة إلى أن البحث لا ينتهى أبدا.

وبالنسبة للعصور الوسطى فهناك ميادين ستظل ولفترات طويلة تحجبها الظلال، كما أن هناك أماكن يكاد بحثها أن يبدأ، وهذا طبعا مرده إلى الافتقار إلى الوثائق، ومن أجل ذلك وكى يمكننا أن نتتبع البحث أو ننهض به، يجب علينا أن نعرف مسبقا حصيلة ما تم حتى الآن.

فقبل أن نبحث ينبغى أن نتعلم، ولن نتعلم حتى نبحث ما السبيل إلى ذلك؟ لابد لنا من استخدام الذكاء والذاكرة مع تنظيم منهج عملى للعمل.

وهذا يتطلب أولا أن نعرف كيف نقرأ وكيف نأخذ مذكرات.

فمعرفة القراءة هو الإمساك بتلابيب ما هو مهم فى الكتاب، أو فى الفصل أو فى الفقرة، دون أن توقفنا التفاصيل الثانوية، وبحيث يمكننا أن نسجل ما يبدو لنا هاما.

ثم بعد ذلك يأخذ القارئ من جديد العناصر التى توضح أو تبرهن هذه الموضوعات الأساسية، فهو بذلك يأخذ مذكرات بعد قراءة كاملة للكتاب، مع الرجوع إلى كل فصل، فإذا اتضح له أن الكتاب المدروس له أهمية خاصة، فيستحسن أن يعمل له عرض مطول دون إسراف.

أما إذا كان الكتاب ليس إلا مكملا لما بعده، أو إذا كان كتابا واسعا تــوليفى يستند على وقائع يعرفها فعلا، فلا حاجة إلى فيشات غزيرة العدد، فبعض الصفحات تكفى لكى نسجل ونحتفظ بالأفكار الأساسية، والآراء البارزة، ثم ماذا نعمل بهــذه المذكرات التى دوناها، إن أهم عملية تأتى بعد ذلك هى التفكير فلا شك أن الذكاء قد قام بدوره فعلا فى مرحلة القراءة لاكتشاف العناصر الجديرة بالحفظ.

ولكن الذكاء يمارس بدرجة أكبر عند إعادة قراءة هذه المذكرات، فهنا تبــدأ مرحلة التساؤل والبحث عن تفهم آراء المؤرخين وطريقة معالجتهم لموضوع مــا، وهذا التساؤل هو الفصل الجوهرى للعمل التاريخى.

ثم تأتى بعد ذلك ضرورة أن نتعلم وهذا شرط لإحراز التقدم، لأنه لا يمكــن أن نتقدم فى المعرفة الذكية للتاريخ إلا عن طريق خطوات متتابعة، تنتهى إحــداها عندما نتأكد حقيقة من أننا قد حصلنا ما قدمته لنا من معلومات.

ويجب ألا ينقلب التعلم إلى عملية حفظ عن ظهر قلب، حقا إن من الواجب أن نحفظ بعض التواريخ الهامة، وعدة أسماء أعلام وبعض الحوادث، كمــا يجــب أن نحفظ تسلسل الوقائع وهو تسلسل تستطيع أن تعيه الذاكرة إذا مــا تمثلــه الــذكاء والتفكير، فالذاكرة بدون ذكاء لا تفيد طالب التاريخ فى شيء.

لاشك أن عبارة "يوتوبيا" التى اخترعها توماس مور عام ١٥٥١م واتخذها عنوانا لروايته المشهورة، والتى عبر بها عن المناداة بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية المثالية إلى حد يتعذر معه تطبيقها، تصدق تماما على حركة القرامطة التى ظهرت فى التاريخ الإسلامى إبان القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد)، فقد لعب القرامطة دورا هاما فى جميع مناحى الحياة فى ذلك الوقت، واختلف نظامهم الاجتماعى والاقتصادى عن نظام جيرانهم فى العراق وفى الخليج، بل عن نظام الدولة الإسلامية، والقرامطة هم إحدى الفرق التى انشقت عن الشيعة الغلاة، وقد امتازت بموقف اجتماعى سياسى مميز، وبموقف فلسفى اصطبغ بطابع أفلاطونى محدث، وتركزت حركة القرامطة ـ بعد ظهور ثورة الزنج ـ فى المناطق الواقعة إلى الجنوب من العراق، وتأسست دولتهم المستقلة عن الخلافة العباسية ومركزها المناطق الواقعة على الخليج العربى، واستمرت مائة عام، ووصلت دعايتهم إلى سوريا واليمن وخراسان، واستمرت أفكارهم السياسية والدينية ضمن إطار الدولة الفاطمية.

وقد ارتكزت عقيدتهم وتأسست على عقيدة الإسماعيليين ومذهبهم، ولكنهم سرعان ما اختلفوا معهم بسبب مقابلتهم بين التنزيل والتأويل وجعلهما الأسلوب الحقيقى لتفكيرهم فقد لجأوا إلى تأويل معانى الآيات القرآنية الظاهرة إلى معان أخرى، وقالوا عنها: "إنها خفية"، وأصبح الإمام لديهم تدور حوله كل عقيدتهم، فهو مصدر العلم، كما أنه فى نظرهم يرتفع فوق مستوى البشر، وأنه ينزل عليه طعام الجنة وأنه يملك ناصية الأمور، وكانوا يخرون سجدا عند رؤيته، وبذلك فهم قد خرجوا عن جادة الصواب عندما نكلوا بكثير من المسلمين ممن هم على غير مذهبهم، ولم يتورعوا عن مهاجمة المصلين، ولم تسلم قوافل الحج من بطشهم،

وعبث قرامطة البحرين بالحجر الأسود وانتزعوه من الكعبة الشريفة واحتفظوا بـــه لمدة خمسة وعشرين سنة.

وقد ولد مؤسس هذه الطائفة حمدان قرمط فى نواحى الكوفى بالعراق، حيث كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية سيئة للغاية مما أدى إلـــى انتشـــار دعـــوة القرامطة فى سواد الكوفة.

وكان الجنس البشرى القرمطى ينقسم إلى فئتين هما: الخاص وهم النخبـــة، وهو الذى يمتلك ناصية المعرفة، والعام وهم عامة الناس، والجدير بالذكر أنهم لـــم يتخذوا تسمية القرامطة عنوانا لحركتهم بـــل كـــانوا يســـمون أنفســـهم المـــؤمنين المنصورين بالله والناصرين لدينه والمصلحين فى الأرض كما ذكر المقريزى فـــى "اتعاظ الحنفا"، ولكن أعداءهم هم الذين أطلقوا عليهم اسم "القرامطة" تحقيـــرا لهـــم وتعبيرا عن سخطهم عليهم، ويقال "قرمط" فى اللغة لمن يقرمط فى خطوهأى إذا ما قارب بين قدميه عند المشى، والقرمطة هى المقاربة بين الشيئين، وفى الخط دقـــة الكتابة وتدانى الحروف.

وكان لتنظيمات القرامطة المالية أثر كبير فى انتشـــار دعـــوتهم، وفرضـــوا الضرائب على كل مستجيب لدعوتهم، دلالة عـــن حســـن ولاء الأتبـــاع ومـــدى استعدادهم للتضحية، وقد تمكن القرامطة بفضل هذه الأموال التى جمعوها من إقامة قلعتهم الحصينة بالقرب من الكوفة سنة ٢٧٧هـــ وسموها "دار الهجرة".

وكان منهجهم فى جمع الأموال من أتباعهم يقوم على أساس من تأويل بعض الآيات القرآنية، ومن ذلك مثلا ضريبة "الفطرة" على قوله عز وجـــل: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[1]، ثم جاءت ضريبة "الهجرة" التى كانت تفرض فقط على البالغين والبالغات، وأخذوا فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم للتـــدليل

---

(١) سورة الروم آية: ٣٠.

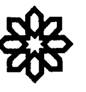
على فوائدها وقالوا إنها المقصودة من قوله تعـالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]، ونادوا بعد ذلك بضريبة "البلغة"، وحثوا كل فرد من أتباعهم على دفع سبعة دنانير لينالوا المرتبة الرفيعة التى تجعلهم السابقين الذين أشار الله تعـالى إليهم بقوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾[2]. ثـم خطوا خطوة أخرى نحو تحصيل خمس ما يملك كل فرد من أتباعهم عملا بقولـه عز وجـل: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾[3]. وابتـدع حمدان قرمط فى سنة ٢٧٦هـ نظام الألفة الذى يقضى بنزول أتباعه عما يملكونه ملكا عاما للجماعة.

وقد لعبت المرأة دورا هاما فى هذا النظام إلى جانب جهودها فى ميادين القتال حيث كن يخرجن مع الرجال فى الحرب للقيام ببعض الخدمات، وقد انهار هذا النظام فى أواخر أيامهم سنة ٢٨٩هـ، وحتى القضاء عليهم تماما فى سنة ٣١٦هـ.

ولاشك أن هذه الجماعة قد تميزت بمواقف اجتماعية سياسية، بحيث يعتقد لوى ماسينيون أن إليهم ترجع مسئولية نشأة النقابات الإسلامية بل وظهور مفاهيم تقترب من المفاهيم الحديثة التى ازدهرت فى عالمنا المعاصر مثل تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية، ومن طامات المجتمع القرمطى انتشار الجهل والخرافات بين كثير من

(١) سورة التوبة آية: ١٠٣.
(٢) سورة الواقعة آية: ١١.
(٣) سورة الأنفال آية: ٤١.

أفراده خاصة من كان منهم من الفلاحين والعمال، كما أنه لم يخل الفظائع والمساوئ كدعوتهم إلى الإباحية فى المال والنساء.

ظهرت رسائل "إخوان الصفا وخِلّان الوفا" فى القرن الرابع الهجرى وتداولها الناس دون أن يعرفوا من كتبها أو نشرها، ومازلنا إلى يومنا هذا لا نعرف على وجه الدقة أو التحديد من هم إخوان الصفا، فكل ما وصلنا من إشارة تاريخية عنهم، وكل التعليقات الأخرى التى وصلتنا عنهم لا تخرج فى جوهرها عما ذكره أبو حيان التوحيدى فى مقابساته، فهو من المعاصرين لهم بل وكانت تربطه بنفر منهم صلات شخصية، قال أبو حيان التوحيدى: "سألنى وزير صمصام الدولة فى حدود سنة ٣٧٣هـ (٩٨٣م) عن زيد بن رفاعة.. ومذهبه. فقال يومذاك أبو حيان ـ وكان يعرف زيد بن رفاعة ويعرف أصحابه على ما يبدو: "لا ينسب إلى شيء ولا يعرف له حال.. إذ تكلم فى كل شيء.. وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا، مصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى ـ ويعرف بالمقدسى ـ وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى، وابو أحمد المهرجانى، والعونى وغيرهم، وصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، ثم قال: وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها وسموها "رسائل إخوان الصفا" وكتموا فيها أسماءهم، وبثوها فى الوراقين ووهبوها للناس" ونقل القفطى فى كتابه "أخبار الحكماء" ما قاله أبو حيان التوحيدى عن إخوان الصفا، دون زيادة أو نقصان.

ويزعم إخوان الصفا أن "جماعتهم" ترجع إلى أيام الرسول ﷺ، ولذلك فهم يقولون إنهم من نسل المسلمين الأوائل، وأنهم إنما كشفوا عن أنفسهم ـ أو أرادوا أن يكشفوا عن أنفسهم ـ فى القرن الرابع الهجرى.

وقد نشأ هؤلاء الإخوان فى العراق، وربما البصرة على وجه التحديد، غير أن هذا إنما يدخل فى باب الظن لا من باب اليقين، ولكنهم ذكروا صراحة فى رسائلهم أن اسمهم مأخوذ من صفوة الإخوة.

وكان إخوان الصفا مسلمين، لأنهم نشأوا نشأة إسلامية ثم بنوا فلسفتهم على أساس إسلامى، واعتقدوا أن الإسلام خير الأديان وأن محمدا عليه الصلاة والسلام خير الرسل.

والواقع أن الدارس لإخوان الصفا ورسائلهم يتضح له بجلاء أنهم كانوا أصحاب "مذهب فلسفى أخلاقى" أى أنهم كانوا جماعة من المتفلسفة الأخلاقيين الذين يرون أن الدين وحده لا يكفى(على مازعموا) وإنما تكمله الصداقة الصحيحة والمعاملة الحسنة والإحاطة بالعلوم وتنزيه النفس واتباع العقل.

وقد رأوا أن الاعتقادات وحدها لا تؤدى إلى السعادة الدنيوية ولا إلى الفوز بالآخرة، ولذلك أضافوا إليها عقيدتهم فى المعارف الطبيعية والفلسفية، وجعلوا الإلمام بها والتمعن فيها شرطا أساسيا للسعادة الحقيقية. وقد تبنى الإسماعيليون والدروز هذه الأفكار إلى حد ما فى نظامهم المذهبى.

وقد صنفوا إحدى وخمسين رسالة بثوها هذه الآراء، وجاءت رسالتهم الثانية والخمسين، والمسماة "الرسالة الجامعة" الغاية من الرسائل كلها، لأهميتها وجمعها لكل أفكارهم التى جاءت فى رسائلهم السابقة، وكانوا يطلقون عليها أيضا "الفصل الجامع".

والحقيقة أن أخوان الصفا كانوا يخفون وراء مذهبهم دعوة سياسية مناهضة للدولة العباسية، وكانت طريقتهم فى الدعوة إلى ذلك تقوم على الثقة فى شخص ما، فإذا ما أيقنوا استعداده لقبول دعوتهم، حاوروه وضموه إليهم، وهكذا واحدا بعد الآخر إلى أن كثر عددهم وانتشرت دعوتهم فى بلاد كثيرة ولدى طبقات مختلفة من الناس.

وكانت اهتماماتهم تنصب أساسا على النواحى الخلقية الفلسفية واتخذوا لأنفسهم دستورا فيه عشر خصال فلسفية أخلاقية اجتماعية يمكن أن نوجزها هنا على النحو التالى:

- الإقرار بالتوحيد والابتهال إلى الله بالدعاء.
- الإقرار برسله وتصديقهم بالقبول منهم.
- التصديق بالكتب المنزلة من عنده عليهم.
- حفظ الناموس وسياسة الناس.
- التواضع لله وترك الفخر.
- ترك الظلم والفجور.
- ترك مخالطة النساء والإصغاء لهن.
- ترك شرب المسكر فإنه عدو العقل.
- الكرم والسخاء وسماحة النفس والتفضل على سائر الناس من صديق أو عدو.
- صدق القول وأداء الأمانة إلى البر والفاجر.

كما أنهم قسموا العلوم الفلسفية إلى أربعة أنواع أولها الرياضيات والثانى المنطقيات والثالث العلوم الطبيعيات والرابع العلوم الإلهيات، وقد خاض إخوان

الصفا فى المنطق واعتبروه جزءً من الفلسفة حيث أفردوا له فصلا عنوانه "فصل فى أن المنطق أداة الفيلسوف" جاء فيه: "واعلم بأن المنطق ميزان الفلسفة، وقد قيل إنه أداة الفيلسوف، وذلك أنه لما كانت الفلسفة أشرف الصنائع البشرية بعد النبوة، صار من الواجب أن يكون ميزان الفلسفة أصح الموازين وأداة الفيلسوف أشرف الأدوات".

وتعتبر "رسائل إخوان الصفا" صورة للحياة الفكرية فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكانت غايتهم من كتابتها صلاح الدين والدنيا والاقتداء بالحكماء وبالفيثاغورثيين على الأخص، وكان مذهبهم هو النظر فى جميع العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية، وأنهم لا يعادون علما من العلوم ولا مذهبا من المذاهب ولذلك فإنهم يريدون أن يعرف هذه العلوم إخوانهم المنضمون إليهم والذين لا يستطيعون حضور مجالسهم.

وقد شهد القرن الرابع الهجرى صعود نجم عدد كبير من العلماء من أمثال أبو نصر الفارابى، وأبو الحسن المسعودى، ويحيى بن عدى، وإبراهيم بن سنان، وأبو الفجر الأصفهانى، وأبو الحسن العامرى، وهم من الشخصيات التى لعبت دورا هاما فى وضع أسس الفنون والعلوم الإسلامية، وهذا القرن أيضا هو الذى كان له تأثيره الدائم على هذه العلوم فى القرون اللاحقة.

فبالإضافة إلى إخوان الصفا عاش فى هذا القرن البيرونى وأبو البركات البغدادى وابن سينا وأبو سليمان المنطقى وأبو حيان التوحيدى، وهو العصر الذى ظهرت فيه الموسوعات العلمية الهامة مثل مفتاح العلوم للخوارزمى (٣٦٦هـ) والفهرست لابن النديم الوراق (٣٧٨هـ). كما عرفت عدة أسماء شهيرة فى الرياضيات مثل أبو زيد البلخى وأبو الوفا وأبو سهل الكوهى وعبد الرحمن الصوفى وابن يونس، وبالمثل ازدهرت الفنون والعلوم الإسلامية فى القرن الخامس

الهجرى وإن كان ذلك بقدر أقل، فهذا العصر هو عصر ابن الهيثم وعلى بن عيسى وعمر الخيام والغزالى وأبو إسحاق الزرقالى وغيرهم.

وقد انتشرت "رسائل إخوان الصفا" وحازت شهرة واسعة وتداولها العلماء فى العصور التالية وحتى يومنا هذا، وترجمت إلى الفارسية والتركية والهندوستانية، وقد قرأ هذه الرسائل واستفاد بها حجة الإسلام الغزالى وابن الهيثم وناقشها شيخ الإسلام ابن تيمية الذى قال: "إنهم من النصيرية" مع أن معظم من كتبوا عنهم نسبوهم إلى الإسماعيلية، وقد أدخل هذه الرسائل إلى الأندلس الحكيم المجريطى الإمام الكرمانى، وكانت لها تأثيرها على اثنين من كبار مفكرى المغرب هما الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى وابن خلدون، وقد قال بذلك العالم الإنجليزى لين بول فى كتابه "دراسات فى مسجد" (بالإنجليزية ــ لندن ١٨٩٣) والأستاذ عادل عوا كتابه "روح النقد لدى إخوان الصفا" (بالفرنسية، بيروت ١٩٤٨)، وقد اهتم الغرب برسائل إخوان الصفا فى القرن التاسع عشر عندما ترجمها إلى اللغة الألمانية على مدى ثلاثين عاما العالم فريدريك ديتريشى (١٨٥٨ ــ ١٨٩١) وتوافر على دراستها ثلة من جهابذة المستشرقين من أمثال براون ونيكلسون واسين لاسيون وبينس الذى قال: إنهم نقلوا نظريتهم السياسية عن الفارابى، كما تناول هذه الدراسات مجموعة من الدارسين الغربيين للفلسفة الإسلامية من أمثال كازانوفا، وجولدزيهر وماكدونالد وماسنيون وإيفانوف، وسترن وسارتون وكوربان.

وقد كتبت هذه الرسائل بأسلوب سهل رغم ازدحامه بالتعابير الفنية والفلسفية ولكنه قريب من الأفهام، وإذ استثنينا الألفاظ الفنية والتراكيب الفلسفية وجدنا أن لغة الرسائل فصيحة وإن شابها من الضعف والركاكة، ولكنها أفضل من لغة الفارابى، وأقل متانة وجمالة من لغة ابن سينا والغزالى، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تقاس بلغة العلامة ابن خلدون.

روى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ ملغزا فـــى النخلـــة: **أخبرونـــى بشجرة شبه الرجل المسلم، لا يتحاتُّ ورقها، وتؤتى أكلها كل حـــين، ولا ولا.** قال ابن عمر: فوقع الناس فى شجر البوادى، ووقع فى نفسى أنها النخلـــة، فـــأردت أن أقولها، فإذا أنا أصغر القوم، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله ما هى؟ قال: **"هى النخلة، فهى تشبه الآدمى من أمور كثيرة، استقامتها، وطولها، وامتـــدادها، وامتياز ذكرها عن أنثاها، ووجود الخنثى فى نوعها، واختصاصها باللقـــاح، وأن رائحة طلعها كرائحة المنى، وأن لطلعها مكانا كالمشيمة للولد، وأنها إذا قطعـــت رأسها ماتت، وإن أصاب جمارها آفة هلكت، وأن لها ما يشبه الشعر، وهو الليف، وأنها إذا حملت لم تغسل لشغلها بالحمل عن الغسيل، فتصرف المادة عنـــه إلـــى الحمل، كالمرأة إذا حملت ينقطع طمثها ولبنها، وتقبل اللقاح من فحل دون آخـــر، وتحتاج للتلقيح أكثر من مرة، وتقبله مرة دون مرة، كالمرأة تحبل من رجل دون آخر، وقد لا تعلق إلا بمرار كثيرة، ومتى أخصبت لم تحمل، كالسمن المفرط فـــى السناء يمنع الحمل، وعلامته كبر رأسها، وزيادة غلظ سعفها، وكثرة ليفها، وشدة خضرتها، حتى تضرب إلى سواد"**، رواه الشيخان، وروى عن مجاهد رحمـــه الله، قال: صحبت ابن عمر ﷺ من مكة إلى المدينة، فما سمعته يحدث عن رســـول الله ﷺ إلا هذا الحديث: **مثل المؤمن مثل النخلة إن جالسته نفعك، وإن شاركته نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن صاحبته نفعك، وكل شىء من شأنه منافع، فكذلك النخلة كل شىء من شأنها منافع".**

ومن سر الطبيعة فى النخل أنه إذا بنى بجنبه حائط مالت عنها، كما أنها هى الشجرة التى ولد تحتها سيدنا عيسى عليه السلام، ومن عجائبها أيضا أنها لا توجد

إلا فى بلاد الإسلام، وروى أن النبى ﷺ قال: "**أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من بقية الطين الذى خلق منه آدم**" (أخرجه أبو يعلى فى مسنده). وجمار النخل يعقل الطبيعة وينفع من المرة الصفراء والحرارة وبطئ المعدة واستطلاق البطن، أما تمره فهو يسخن البدن ويخصبه وهو صالح للصدر والرئة والأمعاء، وملين للمفاصيل ومذهب للإغماء، وأجود أوقات استعماله فى الشتاء، فهو يحسن اللون ويستأصل الأمراض والأوجاع الباردة إن وجدت، ولذلك جعل أول غذاء يفطر عليه الصائم، وقد قرأت فى كتاب "النحل" لابن وحشية، الذى نشره إبراهيم السامرائى سنة (١٩٧٩)، أنه روى عن على كرم الله وجهه أنه قال: "أول شجرة استقرت على وجه الأرض النخلة، وكانت أرض مصر من أحسن الأراضى لإنبات النخل فقد كان من عجائب مصر وبلادها، وأرض مصر توضع النواة فى تربتها فتنبت نخلة تؤتى أكلها بعد سنتين تمرا".

والنخلة فى اللغة: هى شجرة التمر والجمع نخل ونخيل وثلاث نخلات، وأهل الحجاز يؤنثون النخل، وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ ﴾، وأهل نجد يذكرونه، وهى شجرة مباركة، من عجائبها أنها لا توجد إلا فى بلاد الإسلام، ولها فضائل كثيرة، وقد روى التنوخى (٣٨٤هـ) فى نشوار المحاضرة حكايات وطرف عجيبة عن أمر النخل.

ومما قيل فى النخل من الطويل:

كأن النخيل الباسقات وقد بدت : لناظرها تحكى قباب زبرجد

وقد علقت من حولها زينة لها : قناديل ياقوت بأتراب عسجد

وقال بعضهم فى وصف الجمار: (من السريع)

جمارة كالماء تبدو لنا : ما بين أطمار من الليف

جسم رطيب النفس لكنه : قد لف فى ثوب من الصوف

وقال كشاجم: (من الخفيف)

قد أتانا الذى بعثت إلينا : وهو شيء فى وقتنا معدوم

طلعة غضة أتتنا تحاكى سفطا فيه لؤلؤ منظوم

وفى وصف البلح الأخضر: (من المنسرح)

أما ترى النخل أبدت لنا بلحا : جاء بشيرا لدولة الرطب

كأنه والعيون تنظره : إذا بدا زهره على العطب

بخانق من زبرجد خرطت : محلاة الرءوس بالذهب

وقال فى الأحمر: (من مجزوء البسيط)

أما ترى النخل باسقات : بُسْرًا حكى لونه الشقيقا

كأنما خوصه عليه زبرجد مثمرا عقيقا

وقال سيدى محمد وفا: (من الرمل)

نثر النخل علينا رطبا : مذهب اللون ولوّن بالسبج

فى صفاء لجة ما قد حكى : فضة بيضاء يعلوه بهج

حاصل فى وضحه ليس بها : إذ يحول الطرف فيها من عوج

حول أحمر رأينا لججا : ليس يحكيهن فى الأرض لجج

ولنا فى كل حين حولها : من نبات الأرض زهر وفرج

وقال بعضهم ملغزا فيه: (من الكامل)

ما اسمٌ يروقك شكله ومذاقه : وإذا عكست فعكسه مذموم

رطـب وفيـه مـرارة ويبوسـة : بادى الصـفات وبعضـه مكتـوم

وقال النمرى يصف نخلا: (من الوافر)

ضربن العرق فـى ينبـوع عـين : طلـين معينـه حتـى روينـا

كـأن فـروعهن بكـل ريـح : عَـذارى بالـذوائب ينتضـينا

وقال آخر: (من الكامل)

روض كمخضر العـذار وجـدول : نقشت عليه يد النسـيم مـواردا

والنخل كالهيف الحسـان تزينـت : لبسـن مـن أثمـارهن قلائـدا

وقال آخر: (من الخفيف)

إن للنخل فـى التشـابيه عنـدى : ابتكـارا محيـرا للأذهـان

كجـوارٍ غـدين يرقصـن : عاريـات الـرءوس والأبـدان

لؤلـؤا كـان أولا ثـم أضـحى : عـن قليـل زبرجـدا كالسـبيان

وكـذا بعضـها يعـود سـريعا : كمكاحيـل صـيغة البرهمـان

وكـذا بعضـها سـبائك بـر : لطوخها من خـالص الزعفـران

وقال الشريف الناسخ: (من مجزوء البسيط)

ونخلـه قـد علـت سـموا : وانخفضـت دونهـا الجبـال

فمـن شـماريخها الثريـا : ومـن عراجينهـا الهـلال

وقال الرفاء يصفه: (من الكامل)

وكأن ظل النخـل حـول قنائهـا : ظل الغمـام إذا الهجيـر توقـدا

من كل خضراء الـذوائب زينـت : بثمارهـا جيـدا لهـا ومقلـدا

خرقت أسـافلهن أعمـاق الثـرى : حتى اتخذن البحـر فيـه مـوردا

شجر إذا ما الصبح أسفر لم يـبح : بـالأمر طـائره ولكـن غـردا

وقال عبد الصمد بن المعدل (٢٤٠هـ) مـن أرجـوزة طويلـة، محاسـنها بحصول الغرض كفيلة، لأنه ذكر النخلة من حين تطلبع إلى حين تضـرم: (مـن الرجز)

إن هـى بـدت كزنيـة الإنسـان : لاحـت بكافورهـا علـى أهتـان

يطلـع منهـا كبـد الإنسـان : إذا بـدت مملـوءة البنـان

علـت بـورسٍ أو بزعفـران : حتـى إذا شُـبِّه بـالآذان

من حمر الـوحش لـذى العيـان : سـعفه علجـان مـاهران

عنى لؤلـؤ صـيغ مـن عقيـان : مرصـع مـن ذهـب خلصـان

وقال كشاجم: (من الرجز)

لنا علـى دجلـة نخـل مشـتمل : نسـلفه مـاءً ويعطينـا عسـل

مسـطر علـى قـوام معتـدل : لم ينحرف عن سطره ولـم يمـل

كان الصوية فى أكثر أحوالهم يتمثلون بالأشعار فينقلون تجاربهم الدينية من عالم الخلق والشهود إلى عالم الملكوت والحضرة الإلهية، ومن الصبوات الحسية إلى الأغراض الروحية، فالواقع أنهم عاشوا دهرهم كله فى ظلال الشعر والغناء والسماع، فالمعانى الشعرية تستوعب الإيحاءات الصوفية وتفى بتصوير أحوالهم ومقاماتهم، وتشرح على وجه أفضل خطرات قلوبهم، وقد برع فى ذلك شعراء الوجدان من الصوفية من أمثال ابن الفارض والشبلى والحلاج وابن عربى، الذين خلفوا لنا تراثا هائلا من هذه المنظومات الشعرية التى تتشوف إلى الذات الإلهية، وتصف أصحاب الحقيقة والشريعة بأنهم من أهل الكشف وأن عندهم أسرار الغيب والتحقيق.

وقد انصبت معظم هذه الأشعار على الحب الإلهى الذى هو جذوة تشغل المحب عن كل ما سوى المحبوب، كما انصبت على المواجيد الذوقية والمدائح النبوية التى كانت تلقى فى حلقات الأذكار، وكانوا يتناولون فى قصائدهم أصعب المسائل وأشقها فهما على من لم يتذوق التصوف، عسى أن يدرك كنهه ويسبر غوره فى لغة شعرية قريبة إلى الأذهان والأفهام، ولا يخفى أن هذه المنظومات قد حفلت برموزهم ومصطلحاتهم التى لا يتعرف على كنهها ودلالتها سوى من كانت له معرفة متعمقة بالأدب الصوفى عامة والشعر الصوفى خاصة.

ويكاد الشعر الصوفى أن يتوازى مع ظهور التصوف، كما توازى مع تطور التصوف وانتشاره، ولم يكن الشعر الصوفى فى طوره الأول متعدد الأغراض وظل على هذا الحال حتى القرن السادس الهجرى حيث تعددت أغراضه وتنوعت موضوعاته لتعبر عن أفكار القوم وتجاربهم الروحية، واستوعبت حقيقة الوجود والفيوضات الإلهية والوحدة والتوحيد الشهودى والمشاهدة والمحبة وعلاقتها

بالصدق والصبر والوصل والرضا، وكلها من أحوال الصوفية ومقاماتهم، وقد غصَّت المؤلفات الصوفية منذ ذلك التاريخ بالشعر بل وجاءت كلها شعرا كما في حالة ابن الفارض.

وابن نوح القوصي الذي نحن بصدده من هؤلاء الصوفية الذين استخدموا الشعر كأداة تعبيرية عن الموضوعات الصوفية التي أوردها في مؤلفه "الوحيد في سلوك أهل التوحيد" الذي يعتبر بمثابة سيرة ذاتية لحياته المفعمة بالتجارب والدروس الروحية، وأتى فيه على ذكر شيوخه وأحوالهم وسيرهم، وظروف معيشتهم والحركات السياسية والدينية التي عايشوها أو شاركوا فيها، وهو بهذا العمل قد ترك لنا منبعا لا ينضب من المعلومات التاريخية ومرجعا من مراجع التصوف الأصيلة.

ابن نوح القوصي الصوفي الشاعر:

يعتبر ابن نوح القوصي نتاج التصوف الذي ساد في القرن السابع الهجري، ذلك القرن الذي انتعشت فيه الحياة الروحية وازدهرت ازدهارا كبيرا، ليس في مصر وحدها بل وفي العالم الإسلامي بأسره، وقد ذاع صيت الشيخ عبد الغفار بن عبد المجيد الدروي المحتد، الأقصري المولد، القوصي الدار، في صعيد مصر حيث تجرد وتعبد، فكان كما وصفه الإمام المناوي في كواكبه: "عالم كماله معروف، ومقاله موصوف، ووجوه مواعظه مقبولة، وأخبار عرفانه منقولة"، وقد اشتهر أمر الشيخ في قوص وبنى بظاهرها رباطًا له، واجتمع عليه المريدون والسالكون.

وقد وشى به في سنة (٧٠٠هـ) فحمل إلى القاهرة وأقام بجامع عمرو بن العاص إلى أن توفي في ذي القعدة سنة(٧٠٨هـ).

الشعر في كتاب "الوحيد":

قال الإدفوى فى "طالعه السعيد" - فى ترجمة ابن نوح: كان له شعر حسن وقدرة على الكلام؛ وكتب عنه من شعره الشيخ أثير الدين أبو حيان (٧٤٥هـ) والشيخ قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبى المصرى المؤرخ (٧٣٥هـ) والإمام علاء الدين على بن إسماعيل القونوى (٧٢٩هـ) وغيرهم.

فقد كان الرجل من أهل العلم ونموذجا على حياة الصوفى الحق، انصب كل اهتمامه على نشر الثقافة الدينية، وقد قال معظم أشعاره فى وصف مقامات الصوفية وأحوالهم ومناجاتهم وتجلياتهم.

فمن شعره فى الزهد:

أأزهد؟ ما لى فى العوالم ذرة : ولا الكون من شأنى ولا حاصل عندى

ومن أين لى شيء فأشهد تركه : وما الزهد إلا أن أزهد فى زهدى

وما أنا إلا عبد رق لمالك : فمن غير إذن لا أعيد ولا أبدى

وقال فى الصبر:

تجرع كأس الصبر مرًّا فمنذ رأى : جمالكم صارت مرارته شهدا

وقد ركب الأهوال شوقا إلى اللقا : إذا انشق الزيتون والبان والرندا

وأنساه ما قد قال من ألم السرى : إذا جددت أجفانه بالسرى عهدا

وقال فى القضاء والقدر:

رضاك بانقضاء لى رضا : وكل بعيد بكم يقرب

فذات الجحيم بكم جنة : ونفس العذاب بكم يعذب

فما بعدت فيكم شُقَّةٌ : وعين اختيارك لى مطلب

إذا شـــــئتمونى بمـــــا شــــئتموا : وما كنــت شـيئا فمـــن يعصــب

وقال فى مدح القوم (أى الصوفية):

قـــوّ علـــى الإيمـــان قـــد جبلـــوا : فكلهـــم لهـــم أهـــل وأحبـــاب

لا يرغبون بمـــال عـــن محبـــتهم : كلا ولا مُلـــكٌ يثنـــيهم وأســـباب

قد بايعوا خيـــر خلـــق الله كلهـــم : وتابعوه فهم فى الحـــق أصـــحاب

وهم نجوم هدىً للســـائرين بهـــا : وهـــم إلـــى الله للقصـــاد أبـــواب

وقال فيهم أيضا:

قـــوم لهـــم عنـــد الإلـــه مكانـــة : فليس لهـــم مـــن دونـــه حجـــاب

فما حجبت عن الظهـــور قلـــوبهم : ولا غلقت مـــن دونهـــم الأبـــواب

وقال فى مدح الرسول ﷺ:

يا جامع الحسن فى خَلْقٍ وفـــى خُلُـــقٍ : يا كامل الأوصاف فى الأخلاق والشيم

يا خاتم الرسل يا كنـــز العصـــاة ويـــا : خير البرية من عـــرب ومـــن عجـــم

يا مالك الحسن بـــالخُلُق الجميـــل ويـــا : معنى الكمال الذى فى الجود والكـــرم

وجذبت بالحب مغناطيس القلـــوب إلـــى : سر الجمـــال الـــذى لـــم نبـــده بفـــم

وقمت فى الرسل عـــالٍ فـــوق رتبـــتهم : فى أمةٍ أصبحت تعلـــو علـــى الأمـــم

شـــقت عليـــك قلـــوب مـــن محبتهـــا : وقلدت فـــى الـــوغى أجيادهـــا بـــدم

قد نلت فـــوق الـــذى مـــا نالـــه أحـــد : مـــن الأنـــام بمـــا قـــد خطـــه القلـــم

ولـــى إليـــك احتيـــاج إن مننـــت بـــه : عند الإله فقل مـــا شـــئت مـــن ألـــم

فهو العليل بما فـــى القلـــب مـــن ألـــم : وهو الحكيم الذى يشفى مـــن الســـقم

صـــلى عليــــه إلــــه العــــرش قاطبـــة : قبل الصلاة وقبل الخَلْــق فـــى القـــدم

وقال فى الذات الإلهية:

فى وصفت ذاتك سار العقل فى التيــه : محيرا ليس يدرى كيــف يبديـــه

إن سار خلفـــا فـــلا خلــف يوصـــله : وإن تقـــدم فـــالأنوار تعميـــه

وإن غدا صاعدا فلا خلــف يوصـــله : خشية وهى حسرا فـــى ترامـيـــه

وإن يرى هابطـــا فالتحــت يحجبـــه : أو يمنة أو يسارا فهـــو يحويـــه

ولـــيس يدركـــه عقـــل ولا بصـــر : ولا ســـماع ولا الأفكـــار تدريـــه

يخفى ويظهـــر فيمـــا لا خفـــاء بـــه : وهو فى الظهور معانٍ فيه تخفيه

وكيف يدرك خَلْــقُ وصــفَ خالقـــه : أم كيف يفهم معنىً من معانيـــه؟!

ضـــل المشـــبه فيمـــا فـــى عقيدتـــه : جل التعالى عـــن حـــد وتشـــبيه

ما كان شيء سوى ربـــى فيشـــبهه : أم كيف يشبهه الخلـــق يســـاويه

بمـــن أشـــبهه عمـــن أنزهـــه : ولم يكـــن غيـــره حتـــى أســـميه

ما نـــزه العبـــد إلا وصـــف نسـبته : وهو المنزه عـــن تنزيـــه تنزيـــه

استخدمت عبارة "درويش" وجمعها "دراويش" فى اللغة الفارسية للدلالة على الفقير المنتمى لإحدى الطرق الدينية، وهى مشتقة من الفعل "دروش" أى لف الرأس بقطعة من القماش يختارون لها لونا معينا، كالأخضر والأحمر والأسود والأبيض، يتميزون بها ولها عندهم دلالتها الخاصة، (كما هو الحال مع الرفاعية فى مصـــر والذين تميزوا باللون الأسود والأحمدية باللون الأحمر). وهؤلاء الـــدراويش هـــم جماعة من الزهاد الذين لم يخل منهم عهد ولم تخل منهم ديانة، فقد كانوا من ذلـــك الصنف الذى نشأ زاهدا فى الحياة منصرفا عن شهواتها ومتعها، مائلا إلى العزلـــة وترك الحياة بما فيها جملةً، وهم فى ذلك لم يرغبوا عن الحياة إلا عـــن رأيٍ ولـــم ينصرفوا عن متاعها إلا عن فكرةٍ، وكلها أمور تتطلـــب عزيمـــة وتصـــميم مـــن الدرويش لكى يكون درويشا حقا لا وهما وخداعا، وهم معروفون فـــى المغـــرب والجزائر باسم "الإخوان" وتنطق "خوان".

ويخلط الكثيرون بين الدروشة والتصوف مع أنهما أمران مختلفان، فالدروشة صفة الفقراء السذج من ذوى النفوس القوية الزاهدة فى الحياة، أما التصوف فهـــو سبيل النفوس التوَّاقة إلى الأخلاق المحمودة، وهى عادة مثقفة ومتعلمة وصادرة عن رأى وذوق وحال، كما أن الصوفية لهم شعرهم الذى لا يقل عذوبة وروعـــة عـــن الشعر الأدبى، وهو يعتبر الترجمة الصادقة لأحوالهم ومقاماتهم بلغة عربية فصحى، أما الدراويش فكانت تعابيرهم تتشكل أزجالا بلغة عامية لا تحتـــاج إلـــى تـــدقيق واختيار أو تمحيص، بل كانوا يرسلونها على البداهـــة ارتجـــالاً دون تـــذويق أو تحرير، وكانت هذه الأزجال مع ذلك تمثل فكرة مجتمعة وقضية مشـــتركة تعـــالج التوسل أو التضرع أو التعبد وتتنـــاول فـــى الوقـــت ذاتـــه الأحـــداث التاريخيـــة والاجتماعية، وقد كانت تعبر بدقة عن أحوال الدراويش زهدا وتقشفا وجهادا للنفس،

وتفيض بآلامهم وشكواهم ومعاناتهم من ظلم الحكام أو الناس، وضـــرورة تهيئـــة نفوسهم على تحملها بالتضرع إلى خالقهم والتوسل برسولهم الكريم ﷺ، وكانـــت أخص صفات الدراويش فيما نعلم تعلقهم بآل البيت وقبور الأولياء الصالحين.

وقد اشتهر هؤلاء الدراويش فى مدينة قونيَّة بعد أن أسس بها جـــلال الـــدين الرومى (المتوفى سنة ٦٧٢هـ ــ ١٢٧٤م) طريقته المشهورة، وكانت لهـــم فـــى مصر فى عصر المماليك مكانة محترمة مما مكنهم من الازدهار والانتشار، فكثـــر عددهم بشكل ملحوظ، وكانوا يَغْشُون الموالد مثل مولد سيدى الانبابى وسيدى أبـــى العِلا والسيدة نفيسة والسيد البدوى، وغيرها من الموالد والمناسبات العديدة، ولكـــن مركزهم ضعف بسبب مشاركة النساء الدراويش مع الرجل فى هذه الاحتفالات التى اختلط فيها الحابل بالنابل ووقعت فيها مناظر مخزية أنكرها عليهم علماء المسلمين، وتقرر على إثرها منع هذه البدع من المساجد ووضعها تحت مراقبة الحكومة وهو ما حدث بالفعل مع أعوان الطريقة البكرية والرفاعية.

وكان هؤلاء الدراويش يتخذون لأنفسهم زيا خاصا يجعلون منه شعارا لهـــذا الولى أو ذاك. وعلى هذا فقد اتخذ دراويش السيد البدوى مثلا الدلق والمِغْفَر شعارا خاصاً بهم (وحتى يومنا هذا)، أما الرفاعية فقد لبسوا الســـواد حليـــة، والحســـينية الخضرة حلية، والبيومية الحمرة حلية، وهكذا دواليك، بحيث أصبح لكل فريق منهم لباسه الخاص وحليته المتميزة، وهم يجتمعون حول قبور الصالحين فى موالـــدهم وأعيادهم، وتفيض ألسنتهم بمدحهم وتلهج بذكر محاسنهم وكراماتهم، الأمر الـــذى يدل على حبهم وتعلقهم بشيوخهم.

وقد اعتنى أحد المستشرقين الفرنسيين المغمورين ويدعى فيكتـــور بوريـــان Bourian, Victor بجمع جملة من هذه الأزجال الدرويشية (إذا ما صح التعبيـــر) وأصدرها فى باريس عام (١٨٩٤) بعوان "مجموعة أعمال زجل مصـــرية" وقـــد

اقتبسنا هنا الزجل المتعلق بالاستغاثة، سواء أكانـت الاسـتغاثة بـالله أم اسـتغاثة برسوله، وهى أزجال تشهد على مقدار عمق معانيها التى تفصح عن الزهد والتقوى والورع:

زجـل استغـاثة

يا إلهـى يـا حـى يـا معبـود : توب علىَّ زاد بى حقيـق الضـيق

بالتُّهَـامى بالصـحب بالسـبطين : بـالجلالين بشـيبة الصِّـدِّيق

دور

يا إلهى بالكتـب الأربـع سـألتك : بما قد نزل فى الصحف لأنك علـيم

بمزاميـر داود وبالإنجيـل : لابن مـريم عيسـى ومـا للكلـيم

ابن عمران موسـى لـه تـوراه : قد أتى لـو تفسـير وفيـه تعلـيم

بالذى له الفرقان عليه قـد نـزل : جُـدْ بالمتـاب علـىَّ بـلا تعويـق

بالتهامى.....

دور

بالبخـارى أسـألك وبالتفسـير : بالكواشـف بـالعلم يـا عـلام

يـابن قاسـم يـا رب بالخـازن : بالخرايشـى بالفقـه مـا انضـام

بالسـيوطى والمحلـى معـه : بالـدليل أقـبض علـى الإسـلام

بالعـارف اسـأل وبالحاشـية : بالمعانى يـا بـو شـجاع توثيـق

بالتهامى...

دور

أسالك وأستغيث بمـــا قـــد دعـــاك : بالصــــحيح آدم فبتـــه المتـــاب

بالذى بو دعـــاك أبونـــا الخليـــل : فنجيتـــه مـــن حـــر نـــار العـــذاب

بالدعاوى من نوح ومـــن يـــونس : بالـــذبيح بالخضـــر بالأقطـــاب

بمـــا دعـــوك النبيـــين كلهـــم : فـــى الأعـــادى مـــزقتهم تمزيـــق

بالتهامى......

دور

يـــا إلهـــى أدعـــوك بمـــا أدخـــر : بالأسامى فى علـــم غيبـــك تشـــيق

يـــا إلهـــى وأســـألك باســـمك : بـــه تميـــت وتحيـــى حقيـــق

بالأســـامى جميعـــا أنـــا أدعـــوك : بحق نـــورك يـــا ســـلام الشـــريق

أنت مؤمن رحـــيم مهـــيمن أحـــد : مـــن ذنـــوب القلـــب فـــى تعويـــق

بالتهامى.....

دور

يـــا إلهـــى أســـألك بســـيدى درَاز : هـــو صـــحابى هـــو أســـد ظـــاهر

بالمشـــاهد بالبهنســـا بـــالهوه : بـــالمليجى بمـــن عالقـــه أقـــاهر

الإمـــام الهمـــام الأنـــزع الكـــرار : تـــوب علـــىَّ يـــارب يـــا قـــاهر

بالوقـــايع بســـاكن العقبـــة : فى المغارة اسفق بنـــا يـــا شـــفيق

بالتهامى.....

دور

بالدســـوقى شيســـخى وأســـتاذى : بمن لأمَّهْ حمـــا وهـــو فـــى الغيـــب

بالمسمى سيدى أحمد البدوى : قطب مسمى من آل رجال الغيب

بالرفاعى الكبير بسعد الدين : توب على واقبل قد أتانى المشيب

بالجيلانى المسمى أبو صالح : لا يزيد مهجتى لهيب تحريق

بالتُّهَامِى......

أما الشفاعة بالنبى ﷺ فإننى أسوق إليك هذا الزجل الذى يدل على قدرة الزجال وتمكنه من القافية:

زجل استغاثة بالنبى ﷺ

يا محمد يا أفضل المرسلين : كن شفيعى لما أجى فى اندبار

يا محمد من لى سواك التجى : من ذنوبى تلك الصغار والكبار

دور

يا محمد يا عين حياة الوجود : أنت ذخرى أنت حبيب القلوب

يا محمد أشكى لمين قصتى : قبل موتى وأطلب من الله أتوب

يا محمد ذنبى عظيم ما أصعبه : قد ضنانى وأنا بأفعالى عيوب

يا محمد دهرى علىَّ اعتدى : ما لقيت لى منه مجير انجار

إن اصطلاح "الموسيقى العربيى" يفتح بابا للبس، ولكنه يجد ما يبرره إذا مـــا كنا نعنى به التعبير التاريخى لحضارة تشكل اللغة العبية والحضــارة الإســلامية محوريها الأساسيين، أما إذا قصد بالموسيقى العربية تلك الصــيغة لفــن مــرتبط بالعرب وببلاد العرب بمعناها الأثنولوجى والجغرافى، فإن هذا الاصطلاح يكــون فى غير موضعه، فهذا المعنى الذى تعارفنا على تسميته بهذه التسمية يعطــى فــى الواقع حقائق جميلة وأثنوموسيقية متنوعة بل ومختلفة تمام الاختلاف فــى بعــض الأحيان، ولكنه ارتسم برسم الإسلام الموحد، الذى نبت وعبر عن نفسه أساسا فــى العربية.

ويجدر بنا كذلك أن نميز بين نوعين مختلفين ومنقسمين بوضوح تــام للغــة الموسيقية العربية: وأحدهما وهو الذى يتعلق ببعض التقاليد الإقليمية الأصيلة والذى يجد التعبير عن نفسه فيما يمكن أن نطلق عليه "الموسيقى الشعبية" أو "الموســيقات ذات الجوهر الفلكلورى"، والآخر هو نوع من الموسيقى التى يجرى إعدادها ابتداء من صيغ وبنيات مصنفة وقائمة على النظريات، وهى الموسيقى التى أطلق عليهــا اسم "الكلاسيكية أو الراقية".

ويخضع النوع الأول لمعايير خاصة تختلف كثيرا من بلد إلى آخر، بل ومن منطقة إلى أخرى تبعا للتجمعات الإثنية أو اللغوية، وهكذا فإننا نجــد الموســيقات الشعبية للعراق وسوريا ولبنان ومصر وليبيا وتونس والمغرب..، كما أنــه يوجــد بداخل العالم العربى موسيقات كردية وأرمنية وتركمانية وغيرها.

ويقف على النقيض من هذا التعبير الموسيقى الخاص بتجمعات إثنية والــذى يتمثل على وجه الخصوص فى التقاليد الفلكلورية للفلاحين وسكان الجبال والبــدو،

نوع آخر من الموسيقى المبنية على صيغ وبنيات راقية تعد أساسا فى المدن الكبرى التى صارت فى بداية ونهاية العصور الوسطى مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية: دمشق، بغداد، قرطبة، القاهرة، وهذه الموسيقى الكلاسيكية التى تعتبر ثمرة الأعمال التى شارك فيها أصحاب النظريات والفنانون، كانت التعبير عن الفن الموسيقى الذى ولد فى نطاق حضارة الإسلام وذلك جنبا إلى جنب من التعبيرات الأخرى الفلسفية والعلمية والصوفية.

وبهذه الصفة فإن هذه الموسيقى الراقية هى نتاج تركيبى، وهو لذلك يخص كل البلاد التى كانت جزءً فى مجال حضارة الإسلام، ولذلك فإنه بالرغم من بعض الاختلافات أو الفوارق الدقيقة فى الشكل، فإن ما نسميه "الموسيقى الكلاسيكية العربية" يماثل فى بنيته وفى أشكالها الأساسية، الموسيقات الكلاسيكية التركية أو الفارسية، وهى من جهة أخرى وأساسا نفس الموسيقى الموجودة فى الشرق الأدنى العربى وفى المغرب، فالفارابى يتنازع العرب والترك فى نفس الوقت، وابن سينا يدعيه الإيرانيون والترك والعرب كل منهما لنفسها، لقد اقتبست نظرية السلم الموسيقى فى جوهرها من اليونانيين، أما تأليف المقامات فمصدره جزئيا فارسى، وهذه المقامات مازالت تحتفظ إلى يومنا هذا بأسمائها الفارسية القديمة بالنسبة للعرب والأتراك والإيرانيين فهى بالنسبة لهم جميعا: رست، سر – جاه، نهاوند، جهار – جه، شنهاز، نوروز، وبالمقابل فالاصطلاحات الخاصة بالإيقاعات قد احتفظت بأصولها العربية: رمل، ثقيل، خفيف، بسيط، دارج.

نرجع إلى أنماط الفرق المختلفة الناجمة عن التأثيرات الإقليمية وإلى تطور منفرد متسم بفقد أو تعديلات اصطلاحية، فهى التى أعطت الموسيقى الكلاسيكية الحديثة لهذه الدول الثلاث الإسلامية الكبرى طابعها المميز، مع استمرار موسيقاها الشعبية بطبيعة الحال مختلفة أساسا.

وتتوه مصادر الموسيقا العربية فى خضم عدة معطيات مثيولوجية وتاريخية ورثيـــة ونظرية وموسيقية تجعل من مجرد المحاولة لدراســة تركيبــة تاريخيــة مترابطة وأمينة ضربا من الوهم.

إن تاريخ المصادر يدور على ثلاث مستويات يلى كل منهم الآخر فى الزمن، وغالبا ما كانوا متوازيين، وينفصلوا أحيانا ليصلوا فى النهاية إلى ما نعرفــه مــن الموسيقا العربية، ويعتمد هذا التاريخ فى وقت واحــد أو منفصــل علــى منــابع ميثولوجية أو توارثى، وعلى وقائع ذات طابع أدبى أو زمنـــى، وعلـــى مؤلفـــات نظرية، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك مخلفات الرواية المنقولــة التـــى تـــم حفظهـــا وممارستها إلى يومنا هذا.

الموسيقى والأساطير والخرافات:

بالنسبة لجزء من المؤرخين العرب فإن الموسيقا أصلها دينـــى أو خلــيط مـــن السحر والخرافة، وهم فى ذلك على النقيض من أصحاب النظريـــات والبـــاحثين فـــى الموسيقى، وهناك جمع غفير من الروايات تتردد ويتولد عنها نظرية كاملـــة نســـجت خيوطها من الرموز والخرافات عن الأصل الموسيقى، فإذا ما طبقت هـــذه الأصـــول على الموسيقا العربية فإنها تختلط وتتضارب، كما يحدث تماما بالنسبة لمعظم موسيقات الشعوب القديمة، مع التعزيم السحرى، فالإنشاد مثله فى ذلك مثـــل الشـــعر والـــذى لا ينفصل عنه، ينشأ عن قوى سماوية غير منظورة ويملك قدرة فائقة وبذا لم يعد الشاعر المغنى ذلك الصانع الكلمات الجميلة أو الناشد للمزامير، ولكن صاحب رؤى، يضـــرب فى الغيب، أو هو مبنى على اتصال بالأرواح والآلهة، ومن أجل هذا فإنهم يخلطونـــه بالأدب العربى فى عصر ما قبل الإسلام، فى الجاهلية بالكاهن والعراف، أو الســـاحر المشعوذ الذى يأتى المعجزات باسم الآلهة، أو كذلك مع المجنون الذى به مـــس مـــن الشيطان والذى يتكلم بلغة الأرواح والآلهة.(بتصرف من كتـــاب الموســـيقى العربيـــة لسيمون جارجى، بالفرنسية، باريس، ١٩٧١).

لقد أثبتت الأحداث منذ عقود طويلة أن العالم العربى مستهدف فى ثرواته وثقافته ومعتقداته، الأمر الذى وضعه أمام تحديات جسام لابد من التصدى لها والتغلب عليها، ولن يتأتى ذلك بإظهار النوايا الحسنة أو التمنيات الطيبة. فالأمر جد خطير ويحتاج إلى تفكير وتدبير فى شتى مناحى حياتنا والبحث عن الفجوات والثغرات والاختلالات ومعالجتها بشكل حازم، فالماضى القريب قد علمنا الكثير وأظهر لنا العديد من الأمور التى أصبحت لا تخفى على أى إنسان ولكنها مازالت خافية علينا لأننا لم نستوعب دروسها أو مواعظها، ولم نحاول الاستفادة من تجاربنا وتجارب الآخرين، فالعلم المعقد الذى نعيش فيه لا يسمح لنا بالتقاعس أو التخاذل أو التوكل على الغير الذى يراقبنا عن كثب ويتربص بنا ريب المنون لكى يختلق الأعذار والأسباب الوهمية ليحقق مآربه ومطامعه فى القضاء على هذا العالم العربى الذى يؤرقه ويفسد عليه ديمقراطيته وعلمانيته التى يتبناها وينادى بها ليل نهار.

ولاشك أن الأمور ليست بهذه السهولة أو بهذه البساطة بل هى أمور شائكة ومعقدة تتطلب منا الصبر والأناة والحكمة والتخلص من أوهام الماضى وخرافاته والتطلع إلى المستقبل الذى نريده لأنفسنا ولأجيالنا من بعدنا، لقد قلدنا الغرب فى أمور كثيرة دون أن ندرى توابع هذا التقليد أو تداعياته علينا ودون أن نعى أخطاره وانعكاساته على حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فالتقليد الأعمى ليس ضارا فقط ولكنه مدمر لهويتنا وشخصيتنا، ورغم الاحتفالات الفكرية الصاخبة التى عمت وطننا العربى، فإنها لم توصلنا إلى تصحيح آرائنا أو توسيع مداركنا، ولم تفتح باب الحوار الجدى مع الآخر لنستشف بواطن أموره ونهتدى إلى تدارك ما ظهر من مخططاته وما بطن.

لاشك أن معظم سلبيات عالمنا العربى وعيوبه إنما تعود أساسا وفى الدرجة الأولى إلى ما تعرض له هذا العالم من قهر سياسى ومن احتلال أجنبى خلف لنـا نظرية الأنظمة العربية المركزيـة التـى فرضـت مركزيـة سياسـية وإداريـة وبيروقراطية متضخمة لم تحررنا من التخلف ولم ترشدنا إلى الطريق الصواب.

ولقد كتب علينا نحن العرب أن نتحمـل أوزار حـروب الغـرب وأطمـاع الصهونية فموقفنا من إسرائيل والصراع المصيرى معها وضعنا فى عداء مفتـوح هو أن نكون أو لا نكون، كما أنه قد جمد كل التطورات والأوضاع الداخليـة بـل ووجهها وجهات مدمرة أو غير سوية أو سليمة كالتسليح المفـرط والديكتاتوريـة العسكرية والانحسار الإيديولوجى، فقد نجحت الصهونية فى إنهاء وإفناء القوميـة العربية التى لم تكن قد بدأت بالكاد وكانت فى مرحلة التكـوين والنمـو بـالمعنى الحديث، فقد بدأت هذه القومية العربية كوحدة ثقافية روج له الأدبـاء والمفكـرون وأمثالهم فى الثلاثينات من القرن الماضى، والآن انتهت القومية العربية كما بـدأت مجرد وحدة ثقافية لا كوحدة سياسية أو اقتصادية أو حتى عسكرية، وجاءت الحرب على العراق واحتلاله بمثابة القشة التى قسمت ظهر البعير، والمسمار الأخير فـى نعش العروبة.

غير أن كل هذه الأمور لا ينبغى أن تفت فى عضدنا أو تصيبنا بـالهوان أو الشعور بالذل أو المذلة، بل على العكس ينبغى لها أن تكون حافزا ودافعا لنا علـى تغيير أوضاعنا ورؤانا، والتيقظ لما يحاك لنا، وأن نعد العدة لمستقبل أوضح، وهذا يتطلب منا أن نعيِّن من جهتنا جملة المقاصد والقيم التـى تكـون عنوانـا علـى خصوصيتنا التاريخية مع الدعوة إلى التجديد فى الفكر والعمل لكى يصبح الإنسان العربى مجموعة حية من المقاصد والقيم الرفيعة لتساعده على التصادم مع عصـر العولمة، وعلى مواجهة تحديات السحق أو المحو الذى تتعرض له أمتنا على أيدى

الآخرين بدعوى صدام الحضارات وإرساء الديمقراطية ومحاربة الإرهــاب فــى بلادنا.

فالمواطن العربى العادى والبسيط هو آخر من يعلم حقيقة مــا يــدور فــى الدهاليز أو ما يجرى وراء الكواليس، فهو مشغول ــ والحق معــه ــ عــن لقمــة العيش ليسد بها رمق أسرته، كما أن المواطن العربى المترف فى واد آخر وشــغل بتحقيق ملذاته وتضخيم ثرواته مما يحول دونه ودون الاهتمام بما يجرى أمامه أو خلفه مفضلا الدعة والاسترخاء والرفاهية على أى شيء آخر.

وهذا على العكس تماما مما يحدث للمواطن فى الغرب حيث يتمتــع الغنــى والفقير بنفس حقوق المواطنة وواجباتها ومسئولياتها التى تجســدها الديمقراطيــة الحقيقية التى ينعم بها فى هذا الغرب الذى حقق بذلك تقدمه وانتعاشه ونجاحه وهذا ما تتطلع إليه بلادنا العربية منذ سنين طوال دون جدوى.

إننا فى حالة يقظة ثانية تنزعنا من العمل السياسى الفرعى وتردنا إلى العمل الروحى والعمل العقلى معا لكى نخرج من دوامة الأساطير والخرافات السياســية والتخلص من منطق "الهروب إلى الإمام".

دأبت الأمة العربية منذ عقود على الدعوة إلى توحيد كلمة العرب ولم شملهم، ونودى بالوحدة العربية كصمام لأمان هذه الأمة وسلامتها، وشغلتنا هذه الأفكار عن حقيقة بديهية وهى أن عالمنا العربى متعدد الجوانب والأبعاد، وأن بيئاته القومية ليست متجانسة تجانسا مطلقا، وقد أدى بنا ذلك إلى نوع من عصبية العروبة التى أشعلتها وأججت نيرانها القضية الفلسطينية التى استحوذت على قدر كبير من الاهتمام بل واستحوذت على مسار حياتنا وعلى تفكيرنا وأفعالنا.

ولقد دفعنا ذلك إلى محاولة تجميع كلمة العرب والتضامن أمام هذه الهجمة الصهيونية الشرسة التى تعاملنا معها بطريقتنا المعهودة أى بالكلام المعسول والتشدق بالأقوال الملتهبة التى لا تقوم على أى أساس استراتيجى أو فكرى سليم. قد أنسانا ذلك أن سر نجاحنا فى التخلص من الكابوس الصهيونى إنما يكمن فى إصلاح بيتنا من الداخل وهو إصلاح لا يقوم على المهاترات بل على الفكر السليم والعلم الحديث والإيمان الحقيقى، وكان من المفروض أن توقظنا دولة إسرائيل التى زرعت فى قلب عالمنا العربى من سباتنا العميق وأن تدعونا إلى مراجعة أوراقنا واتخاذ التدابير اللازمة والحاسمة لتعزيز أوضاعنا حتى لا ننقرض بمرور الزمن.

إن سر غطرسة إسرائيل ونجاحها حتى الآن فى التوسع والعربدة يقوم على أمرين اثنين: هما امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وثانيهما: النظام الاجتماعى السياسى القائم على أساس حقوق الإنسان الإسرائيلى وحرياته رغم أنها جاءت على حساب حقوق الشعب الفلسطينى وحرياته، واستندت إلى نظرية الحق الإلهى المقدس وليس من الموضوعية إذن أن نبحث عن توحيد كلمة العرب أو لَمّ شملهم بل فى تعميق مفهومنا للديمقراطية فى كل قطر وفى كل دولة من دول العالم العربى.

إن عالمنا العربى بعد ضربة العراق المميتة والانقضاض الأمريكى على الشرق الأوسط بهدف تطويره وإصلاحه، يحتاج إلى أن تقوم كل دولة من دولنا العربية بإدخال الإصلاحات المطلوبة سياسيا واجتماعيا وثقافيا. وأن تهتم كل دولة بمصالحها الخاصة وبتحقيق طموحاتها فى أن تصبح قوية داخليا ومكرمة خارجيا، ولن يمنع ذلك من وجود نوع من التنسيق والتشاور بين هذه الدول وبين بعضها البعض دون تدخل فى شئون أى منها أو إجبارها على انتهاج سياسة ما. وقد يفضى بنا ذلك مستقبلا إلى خلق اتحاد عربى له مجلس منتخب يتولى بحث القضايا المشتركة ويضع الحلول الملموسة فى جميع المجالات وخاصة الاقتصادية والثقافية فيها.

لقد آن الأوان لكى نستعيد مكانتنا فى هذا العالم المتعولم الذى أصبح كالغول المطبق على صدورنا وعلى أفكارنا.

الإعلام والديمقراطية

تتيح الديمقراطية السليمة للجميع المشاركة فى الحياة السياسية والعملية، وهى التى تسمح بحرية الرأى والتعبير والمنافسة الحرة بين جميع الآراء ووجهات النظر، مع احترام دولة القانون والمحافظة على أركانها، ويستطيع المواطن فى إطارها الوقوف على الحقيقة ونشرها على أوسع نطاق، ولا تجوز الديمقراطية ما لم يكن هذا المواطن على علم بجميع جوانب الحياة العامة، وهنا برزت أهمية الصحافة ووسائل الإعلام بوصفها الطرق المشروعة التى تؤدى هذه المهمة باعتبارها عنصرا أساسيا فى حياة أى مجتمع مدنى، فالإعلام المستنير هو أكبر ضمانة للحرية، كما أن شفافية هذا الإعلام تكمن فى نشر كل المعلومات التى تتعلق بالقوى الفاعلة فى المجتمع، وهذا بطبيعة الحال يلقى على عاتق الصحفيين العاملين فى بلاط صاحبة الجلالة مسئولية قول الحقيقة، أو عدم الكشف عنها بمطلق حريتهم وبمحض اختيارهم.

فالصحفى يؤمن بضرورة الإفصاح عن الحقيقة عند الضرورة وإن كانت مُرة، وذلك بكل الموضوعية والأمانة.

وقد يحدث فى بعض الأحيان نوع من الانحراف قد يسيىء إلى المهنة ككل، وذلك عندما تُخلى الحقيقة مكانها لأسباب أخرى مثل حماية المصالح الخاصة أو الحصول على أكبر مجموعة ممكنة من القراء بأى ثمن، ولكن الصحفيين الملتزمين بأخلاقيات المهنة، لم يدخلوا هذا البلاط إلا وهم متحصنون بها وبسلوكياتها الأدبية الراسخة التى تصونهم من الوقوع فريسة لبريق المال أو النقود أو الشهرة، فهم على قناعة بأنهم حفظة حرية الفكر، وأن عليهم أن يمارسوا عملهم بروح التمييز بين الإعلام الحقيقى والإعلام المضلل.

إن تاريخ صحافتنا العريق ودورها فى أطوار حياتنا يجعلنـــا نـــؤمن بأنهـــا الضمان لحقوق المواطن، وبأنها البرهان على حريته فى التعبير، وإلمامه بحقـــائق الأمور ومجرياتها، وأن يقول الصحفى الحقيقة دائما، فهذا أمر مفروغ منه، أما أن يحرفها أو يشوهها لغرض فى نفسه، فإنه بذلك يشكل تهديدا للحرية على إطلاقهـــا، فهذه الحرية كانت دائما لها حدود، وهذه الحدود قد تكون أخلاقيـــة أو سياســـية أو قانونية، فالحدود الأخلاقية هى التى تدخل فى نطاق المساس بحرمـــة الأشـــخاص، والحدود السياسية هى التى ترتبط بأسرار الدولة العليا، أما الحدود القانونية فهـــى الحدود التى تنطبق على الجميع، فالصحفى هو أولا وقبل كل شيء مواطن ككـــل المواطنين، وهو كأى بشر إنسان له قدراته وإمكاناته، وهو يعيش واقعه التـــاريخى وبكل أبعاده إن زمانا أو مكانا، وعلى ذلك فالمساواة بين الجميع أمـــام القـــانون لا مناص منها، غير أن هذه الحدود القانونية فى أى بلد من البلدان الراقية (ولا أقـــول الديمقراطية..) لا تصل إلى حد سجن الصحفى وتوقيفه. فمع ما يمثله ذلـــك مـــن اعتساف شديد، فإن هذه البلدان قد تخطته وتجاوزته كيما لا توصم بأنهـــا تحـــاول تكميم الأفواه أو أنها تسعى إلى الانغلاق والتخويف، وهنا ورغم أن الفكرة قد تبدو ساذجة، فربما استطعنا بدلا من اللجوء إلى القانون والعقوبات المغلظة أن نـــراهن على الضمير والثقة، ضمير الصحفيين الذين يعرفون تماما كيف يحددون ما يتعلق بمجال الإعلام، وما يدخل منه فى نطاق الحقيقة من عدمه، ثم الثقة فى القراء الذين يختارون صحفهم عن خبرة واقتناع، ويعرفون كيف يفرقون بين الغث والسمين.

ماجت حياتنا الثقافية خلال القرن الماضى بألوان متعددة من الثقافات والتيارات الفكرية والأيديولوجية التى تلاطمت فى بحار العلم والمعرفة واجتذبت العديد من العلماء والباحثين ممن اشرأبت نفوسهم وسمت إلى الغوص فى أعماق المعارف الجديدة التى هلت علينا من الخارج وسبر أغوار ما لنا من تراث علمى وإرث حضارى خلفته لنا حضارتنا العربية والإسلامية، فكان ذلك مدعاة لتشعب الاتجاهات وتضارب الآراء واختلاف وجهات النظر، فظهرت مدارس ومذاهب فكرية تشابهت حينا وتضاربت أحيانا كثيرة، وأفرزت لنا نوعيات مختلفة من المثقفين والمفكرين الذين أثروا الحياة الثقافية بكتاباتهم ومؤلفاتهم، وأثاروا بأفكارهم ونظرياتهم حماس جمهور المثقفين والمتعلمين وشحذوا أذهانه وملكوا عليه تفكيره ووجدانه.

غير أن هذا لم يتم بسهولة أو برفق، فقد اتسم المناخ الثقافى بالمتناقضات والمشاحنات الأدبية وعانى من آلام المخاض ومن انعكاسات عصور الكبت وانعدام الحرية، وامتلأت الساحة بشخصيات تمتعت بجاذبية خاصة وعرفت بقلقها الروحى والوجدانى وغيرتها على نشر الثقافة والفكر.

وجاء القلق مشتق من فعل تقلق الشخص أى انزعج واضطربت بما فى ذلك من عدم الاستقرار فى مكان واحد أو الثبات على رأى واحد، فهو دائم التقلب فى مسلكه محاولا الإمساك بالحقيقة ساعيا نحو الكمال، معرضا عن الظاهر الساذج إلى الأعمق والأصوب، وجاءت الغيرة لكى تدل على ما كان يعتمل فى نفس هذا الشخص من حمية وأنفة وما يحدوه إلى البذل والعطاء بقصد نفع المجتمع وحثه على طلب العلم والاستزادة من المعرفة، وكأنه يغار عليه من سوء عاقبة الجهل والاستكانة إلى القشور فبات أشد أفراد هذا المجتمع تمردا وقلقا.

لمحات من سيرة طلعت حرب

لقد كتبت سيرة طلعت حرب عدة مرات، وجرت محاولات للتعريف بهذا الرجل العظيم وإبراز ما بذله من جهود وما حققه لبلده من إنجازات في مجال الاقتصاد، دون غيره من المجالات الأخرى التى اهتم بها وأبدع فيها، وتحوطاً لعدم الوقوع فى هذا المحظور أو التورط فيه، فقد آلينا على أنفسنا من البداية العمل بطريقة منهجية مرسومة شأن أشد المؤرخين حرصا على دقة وارتياد كل ميدان من الميادين التى طرقها، ومعالجة كل جوانب حياته العملية والشخصية دون مبالغة أو شطط. فكل إنسان مهما بلغت عظمته وعُلا قدره، له جوانب قوته وجوانب ضعفه، كما أن له أصدقاؤه وله أعداؤه أيضا سواء بسواء، فما بالك بشخص كطلعت حرب الذى أقام الدنيا وأقعدها فى زمانه، ولم تحسن مكافأته فى أواخر أيامه..

ولقد كانت تربية طلعت حرب ونشأته الأولى فى أسرة عصامية متدينة، من أهم أسباب نجاحه فى حياته العملية بل وأهمها طُرًّا، فقد ظل طلعت حرب طوال حياته متمسكا بأهداب دينه، محافظا على تعاليمه، مقيما لشعائره، مما منحه قوة روحية عالية ونفسا سوية راضية، وزوده بمكارم الأخلاق وصفاء النفس، وحصنه ضد المفاسد والمزالق التى انزلق إليها غيره فى ذلك العصر، وقد أهله ذلك أيضا للاتجاه نحو كتب التراث التى سرعان ما استوعب مضامينها واستفاد من كنوزها، وأضحت زاده وزواده يهرع إليها فى أوقات فراغه مستمدا منها العون والراحة.

وقد ساعدته دراساته وأبحاثه التراثية على اكتساب أسلوب عربى رصين وعلى قياس أمور حياته بمقاييس الإسلام والعقل والفطرة السليمة التى جبل عليها منذ الصغر، فشب على الكلمة الطيبة قولا وعملا، وعلى الأخلاق المحمودة والسلوك الفاضل مما أضفى عليه الثناء من الناس والرضا من الله سبحانه وتعالى.

ولم تغره الدنيا بزخارفها ولم تدخل إلى قلبه رغم أنه كن يملكها فـــي يـــده، فعاش مطمئن البال منشرح الصدر، محبوبا عنـــد النـــاس رغـــم كثـــرة حســـاده ومعارضيه، وكان لكل ذلك أثره فى موقفه ومنهجه الذى اتخذه ورسمه لنفسه، وهو الابتعاد عن الأمور السياسية وعدم التدخل فيها، فنـــأى بنفســـه عـــن مهاتراتهـــا وألاعيبها، ولكنه رغم ذلك لم ينج من مؤامرات رجالاتها ودسائسهم.

ولاشك أيضا أن طلعت حرب كان فلتة من فلتات الزمن وظاهرة من ظواهره التى نادرا ما تتكرر. وقد قيض الله لمصر هذا الرجل فى فترة عصيبة من تاريخها لكى ينتشل اقتصادها من براثن الاستعمار وأعوانه من الأجانب فى مصر، فقد رأى بثاقب بصره أن السبيل إلى النهـــوض الاجتمـــاعى بشـــعب مصـــر يمـــر حتمـــا وبالضرورة عبر النهوض الاقتصادى الذى وقف الاستعمار حـــائلا دون تحقيقـــه لغرض فى نفسه.

وقد تنبه الوعى الاجتماعى لدى طلعت حرب بفضل ثقافته ومعرفته باللغات الأجنبية ولاسيما اللغة الفرنسية التى أتقنها وأطل من خلالها على منابر التحضـــر والتنوير والاحتكاك بالعالم الخارجى والانفتاح على تطور العصر، وبدأ فى ثـــورة على الأوضاع التى كانت سائدة ونادى فى كل كتاباته بضرورة تغييرها، ولم يهـــدأ له بال حتى بلغ ما بلغه من نجاح فى وضع اللبنات الأولى لاقتصاد مصرى صميم، وكان فى صراعه المصيرى الشاق هذا لا يستمد العون إلا من رب العالمين ومـــن الشعب المصرى الأبى الذى سانده وآزره بعد أن عانى من طفيليـــات الاســـتعمار ممثلا فى الملكيات والامتيازات الأجنبية، ولم يكن لكتلة الشعب سوى الفتات.

ولقد عاصر طلعت حرب الفترة التى أعقبت الاحتلال مباشرة، وهـــى الفتـــرة التى شهدت عملية تخريب وتحطيم للصناعات القائمة فى مصر، ففى الثمانينات مـــن القرن التاسع عشر كانت الآلات وأدوات مغازل القطن التى أنشأها محمد علـــى قـــد

بيعت، كما بيعت مصانع وورش وسفن شركة الملاحة الخديوية لشركة إنجليزية بثمن بخس هزيل بل هزلى كما يقرر جمال حمدان فى شخصية مصر.

وحدث هذا أيضا للأسطول النهرى وترسانة بولاق ومصانع الورق والأسلحة والذخيرة، فقد تمت تصفيتها لكى لا تتنافس مصانع إنجلترا التى كانت ترى أن السوق المصرية ذات أهمية فائقة لها، وأن فتح مصنع فى مصر هو إغلاق لمصنع مماثل فى إنجلترا..

وفى هذا الجو الخانق كان على طلعت حرب أن يفكر وأن يعمل وأن ينفذ، وفى هذا المناخ المثبط للهمم، أمكن لبنك مصر بقيادة طلعت حرب أن يظهر فى الثلاثينات من هذا القرن بنشاطه الواسع المتعدد وبصرحه الصناعى الذى شيده بعرقه وكده، وخاصة صناعة الغزل والنسيج فى المحلة، ودخل بذلك الوطنيون مجال الصرافة والصناعة التى امتصت بسرعة أعدادا كبيرة متزايدة من العمالة، وفتحت أبواب الرزق أمام آلاف المصريين.

وأترك للقارئ أن يتصور ما واجهه طلعت حرب طوال حياته العملية من صعوبات ما تصدى له من معارك، انتهت للأسف بتغلب قوى الشر والبغى ــ داخليا وخارجيا ــ وتكتلها ضده بعد أن أصبح شوكة فى حلقها ينبغى اقتلاعها، فكان ما كان من إجباره على الاستقالة من عضوية وإدارة بنك مصر فى سبتمبر ١٩٣٩، وهو فى قمة عطائه لمصر، وظل فى عزلته التى اختارها لنفسه وهو لا يفتأ يفكر فى هموم مصر حتى لقى ربه فى أغسطس (١٩٤١) عن عمر يناهز (٧٤)سنة.

وقد خلف لنا طلعت حرب مجموعة الأعمال التى نشرها فى الفترة من ١٣٠٩هـ إلى ١٣٢٢هـ، وهى حسب التسلسل الزمنى على النحو التالى:

١ ــ **البراهين البينات على وجوب تعليم البنات** (مطبعة النيل، ١٣٠٩هـ).

٢ ــ **علاج مصر الاقتصادى** (مطبعة الجريدة، ١٣١١هـ).

٣ ــ **تربية المرأة والحجاب** (مطبعة الترقى، ١٣١٧هـ).

٤ ــ **فصل الخطاب فى المرأة والحجاب** (مطبعة الترقى، ١٣١٩هـ).

٥ ــ **تاريخ دول العرب والإسلام** (الجزء الأول الذى لم يطبع غيره)، الطبعة الثانية ١٣٢٢هـ.

٦ ــ **كلمة حق عن الإسلام والدولة العليَّة** (رسالة مترجمة عن الفرنسية).

دور أعلام القبط فى تراثنا

لقد لمعت فى كنف الحضارة العربية الإسلامية التى سادت مصر فى العصور الوسطى، أسماء قبطية فى مواقع مختلفة، وقامت بين أقباط مصر نهضة دينية وفكرية مشهورة بدأت فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) ووصلت أوجها فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) حيث برزت عدة شخصيات قبطية لعبت دورا ملحوظا فى الحياة الثقافية والعامة، واللافت لنظر الدارسين لتاريخ مصر هو أن هؤلاء العلماء قد حظوا باهتمام المستشرقين الذين اعتنوا بدراسة تراثهم وسهروا على تحقيق مخطوطاتهم وآثارهم.

ومن أشهر الشخصيات التى تركت بصماتها على الفكر القبطى، أبو المكارم أسعد بن الخطير بن مماتى الشهير بالأسعد بن مماتى (٥٠٤ ــ ٦٠٦هـ/ ١١٤٩ ــ ١٢٠٩م)، وكان ابن مماتى من كبار الكتاب وأحد الرؤساء والأعيان، وهو ينحدر من أسرة قبطية كانت تقطن مدينة أسيوط، ومنها نزحت إلى العاصمة حيث تولى أفرادها الولايات والمناصب المهمة، وقد تولى ابن مماتى نظارة الدواوين فى الديار المصرية زمن الملك الناصر وقد أطلق عليه القاضى الفاضل عبد الرحيم

البيسانى وزير صلاح الدين الأيوبى لقب "عندليب المجالس" لفصاحة لسانه وسلاسة أسلوبه.

وعندما تولى صفى الدين بن شكر الوزارة خلفا للقاضى الفاضل، خاف ابن مماتى من بطشه، فترك مصر وقصد مدينة حلب لائذا بالسلطان الملك الظاهر، وأقام هناك حتى وفاته، وقد ترك لنا مؤلفات متنوعة تدل على نبوغه وعراقته فى الكتابة، منها كتاب "سر الشعر"، و"سوء عاقبة الظلم"، و"روائع الوقائع فى التاريخ" و"نظم سيرة صلاح الدين" كما نظم كتاب "كليلة ودمنة"، وقد اشتهر كتابه "قوانين الدواوين" الذى ألفه للسلطان العزيز وأودعه معلومات نادرة عن تنظيم الزراعة والرى والمكاييل والموازين والغابات والحيوانات، وقد قام بتحقيق الكتاب ونشره سوريال عطية وفى أيام الخليفة الفاطمى الآمر بالله، احتل المكين جرجس بن العميد الشهير بالشيخ المكين بن العميد (٦٠٢هـ ـ ٦٧٢م) مكانة مرموقة، وخلف أباه فى ديوان الحبش، وتنقل بين القاهرة ودمشق، وهناك دخل السجن فى أيام الظاهر بيبرس عندما نقم عليه على إثر الاضطرابات إبان الغزو المغولى للشام، وأفرج عنه بعد خمسة عشر عاما.

وقد جاء تاريخه الذى يحمل عنوان "المجموع المبارك" سردا للأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتى اعتلاء بيبرس للسلطة، وهو من أوائل من كتبوا الحوليات التاريخية، وقد اعتمد المكين فى كتابته للقسم الخاص بالعصر الإسلامى على ما جاء فى التاريخ الصالحى لابن واصل، وقد نشر المستشرق الفرنسى كلود كاهن هذا الكتاب عام ١٩٥٥.

أما ابن الراهب القبطى واسمه أبو شاكر بطرس بن أبى الكرم بن المهذب (٦٨١هـ)، فهو سليل أسرة قبطية عريقة كانت تقطن مصر القديمة، وكان كل أفرادها يخدمون الكنيسة أو من كبار موظفى الدولة الأيوبية، وقد رسم ابن الراهب

قسا قبطيا فى دير المعلقة، وكان يعمل بديوان الجيش، لكنه تفرغ فى وقــت لاحــق للتأليف والكتابة، وترك عدة آثار منها: المجامع السبعة الأولى، والبرهان فى القوانين المكملة، وانقراض المهلة فى العقائد والآداب النصرانية، والشفاء فى كتب ما اســتتر من لاهوت المسيح، وكذلك "كتاب التواريخ" الذى أورد فيه سير البطاركة، وقد نشره الأب لويس شيخو مع ترجمة لاتينية عام ١٩٠٣، كما ترجم أيضا إلى اللغة الإثيوبية (الجعيز)، وقد استفاد منه المقريزى وابن خلدون، وله أيضا كتاب فــى لغــة القــبط "أصول مقدمة سلم اللغة القبطية".

ومن الأقباط الذين اشتهروا فى عصر أسرة قلاوون: الشمس بن كبر، أبــو البركات بن الأسعد (توفى حوالى ٧٢٠هـــ)، وكان قسا فاضلا وعمل كاتبا للأميــر بيبرس المنصورى، نائب السلطنة فى مصر، وهو الذى حماه وآواه زمن الفتنة التى وقعت بين بعض المسلمين والأقباط، فظل طوال حياته يعترف لمخدومه بالفضــل، حتى بعد أن ترك خدمته ليتفرغ للكنيسة حيث صــار خادمــا للكنيســة الكبــرى الكاتدرائية بالمعلقة بمصر.

ولابن كبر عدة مؤلفات مشهورة فى علم اللاهوت منها: جلاء العقول فى علم الأصول الملقب بكشف الأسرار الخفية فى أسباب المسيحية، وكتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة فى الفقه الكنسى، وقد ترجمه إلى الفرنسية ونشره الأب تيســران وجاستون فييت عام ١٩٢٨. ووضع قاموسا للقبطية والعربية نشــره المستشــرق أثاناسيوس كيرتشر. وقد أفردناه بدراسة موثقة نشرت بدائرة المعارف الإســلامية (ليدن ـــ هولندا) تحت مادة "ابن كبر".

ولقد سادت ظاهرة أسرة أولاد العسال، وهى عائلة قبطية عظيمــة القــدر، النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، وقد عاشت هذه العائلة فى القاهرة بعد انتقالها من بنى سويف، وكان من أشهرها:

أ ــ الأسعد أبو الفرج هبة الله بن العسال، وكان لغويا ومفسرا للكتاب المقدس، وكتب بالعربية كتابا فى النحو القبطى، وكان يطلق على نفسه "الكاتب المصرى".

ب ــ الصفى أبو الفضائل بن العسال، وكان مشرعا وجدليا، وصنف إلى جانب الرسائل الدينية مجموعة مختصرة من القوانين التى شرعها المجمع المقدس القبطى الذى عقد بالقاهرة علم ١٢٣٩م، والذى جاء انعقاده فى كنيسة حارة زويلة بالقاهرة.

جـ ــ أبو إسحاق ابن العسال، وهو أصغر عائلة العسال، وتولى بعض المناصب الرسمية، مصنف كتاب السلم فى مفردات القبطية والعربية التى تستعمل فى الصلاة، وقد نشره كيرنشر، وله مجموعة عامة لقوانين الكنيسة من عهد الرسل إلى عهد الأباطرة.

وللأسف أننا لا نعرف التواريخ المضبوطة لحياة أولاد ابن العسال، ولذلك نشأ الاضطراب فى نسبة المخطوطات التى خلفوها، رغم أن خزائن الكتب فى أوروبا تحتفظ بالعديد منها، وكذلك المتحف القبطى الذى يقال إنه به (٤٩) مخطوطة منسوبة إليهم، وقد قام المستشرق الهولندى جورج جراف بحصرها وفهرستها.

ويعتبر المؤرخون أن الثالوث الرائد والموسوعى المكون من ابن الراهب وابن كبر وأولاد ابن العسال، هو بمثابة ذروة العصر الذهبى للفكر القبطى فى مصر الإسلامية.

فهرست المحتويات

١- سيرة رسولنا محمد ﷺ.......... ٥

٢- من الوصايا النبوية.......... ٨

٣- من هدى القرآن.......... ٩

٤- من وحى القرآن.......... ١٣

٥- كلمة عن تاريخ الإسلام.......... ١٧

٦- صحيح البخارى ومنزلته.......... ١٩

٧- المجددون وإشكاليات التجديد.......... ٢٤

٨- قولٌ فى المعتزلة.......... ٢٩

٩- ابن حزم القرطبى والمذهب الظاهرى.......... ٣٤

١٠- هل كان العلماء يتحاسدون ويتباغضون.......... ٣٩

١١- عن تفسير الأحلام.......... ٤٢

١٢- تطور العلم عند العرب.......... ٤٥

١٣- قراءات فى التراث العربى.......... ٤٩

١٤- تحويل السنين عند العرب.......... ٥٢

١٥- فى مدلول اليوم والأسبوع والشهر عند العرب.......... ٥٤

١٦- يوتوبيا القرامطة.......... ٦٢

١٧- إخوان الصفا ورسائلهم.......... ٦٦

١٨- النخل والنخيل فى منظومة الشعر والنثر.......... ٧٢

١٩-الشعر الصوفى عند ابن نوح القوصى.................................٧٦

٢٠-زجل الدراويش فى مصر...٨١

٢١-الموسيقى العربية...٨٦

٢٢-العرب وتحديات الإصلاح..٨٩

٢٣-مستقبل العمل العربى..٩٢

٢٤-الإعلام والديمقراطية..٩٤

٢٥-ألوان الحياة الثقافية فى مصر...٩٦

٢٦-لمحات من سيرة طلعت حرب..٩٧

٢٧-دور أعلام القبط فى مصر...١٠١

٢٨-فهرست...١٠٥

تم بحمد الله تعالى

